لهَا سِرُّ النَّحلة..

obeikandl.com

obeikandl.com

..لهَا سِرُّ النَّحلة

رواية

أمين الزاوي

obeikandl.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0572-0

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
بيروت - لبنان

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 676179 21 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

obeikandi.com

المحتويات

إهداء 9

أداء اليمين 9

مطعم أرتور رامبو الحقير 11

.. والليل إذا عسعس 21

.. والنهار إذا جلاَّها 27

الثعبان الذي يظهر ويختفي 38

البحث عن مُومُو 45

سماء المؤذن 51

آلة العود 59

بداية حكاية الشبيه 71

كُلْ من طعام اليهودي ونَمْ في فراش المسيحي 79

من علامات الساعة 92

اليوم الذي ظهر 100

صورة النساء ! 109

القامة 118

بلاغة قط 122

openkandil.com

الكذب الأصلع 130
حج الخيانة 140
باب انتظار الساعة 154
النساء والرجال وما بينهما من شطط 165
ميتامورفوز 176

obeikandl.com

إهـــداء ..

إلى ربيعة، لينا، إلياس وهزار... أحبكم

أمين

obeikandl.com

obeikandl.com

1

أداء اليمين

أقسم بالله العلي العظيم أن أقول الحقيقة، كل الحقيقة
حتى ولو كانت في عجبها وغرابتها تشبه الخيال أو الجنون.

أقسم بالله العلي العظيم ثانية أن أقول لكم كل ما شاهدته وأنا الذي يرى
الندى وكل ما عشته وأنا الذي يعض على تفاحة الحياة بأسنان من
حديد، أن أقول الحكاية دون تزوير أو كذب أو تحريف.

أقسم بالله العلي العظيم ثالثة أن أذكر مَنْ عرفتهم
ومن عاشرتهم ومن أحببتهم بأسمائهم الحقيقية
رجالا ونساء سواء أكانوا من أفراد أسرتي أم من الغرباء دما.

أقسم بالله العلي العظيم رابعة أن أذكر لكم جميع الأماكن
بأسمائها الحقيقية الرسمية والشعبية من مدن ومحلات
و شوارع ومؤسسات مدنية أو دينية أو عسكرية.

وأقسم بالله العلي العظيم أخيرا أن لا أكذب عليكم
و أن لا أترك لذاكرتي الانزلاق أو التهويل فيما أقول وأروي.

ومع ذلك أقول: اللسان ما فيه عظم. وإن أعذب الشعر أكذبه.

التوقيع: أنا.

obeikandl.com

2

مطعم أرتور رامبو الحقير

مـع أن صوتي لـم يكن بكل ذلـك الإدهـاش الـذي كان عليه صـوت خالتـي يامنة فـي تلاوتها للقـرآن عنـد الفجر وعنـد المنام، صوتهـا كان مثيرا للغيرة والجنس وللحرب والسـلام على السـواء، مع ذلك كان الناس يحبـون صوتي، أما أنا فلم أحبـه يوما، وجدت نفسـي مغنية بالصدفـة ودون تخطيط فـي أحقر وأشـهر مطعم بحي اللاكـدوك بوهـران !! مفارقـة عجيبة ! الأشـياء والأماكـن الحقيرة، الحقيرة جدا، هي من قد يمثل العلامات التي تمنح المدن الشـهيرة خصوصياتهـا لتصبح هذه الحقـارة، مع مرور الزمـن، وفي كثير من المرات، أكبـر معالم للافتخـار والتباهي التي تمنح المدن قسـمات تميزها عن غيرها.

منـذ قـرون، تحكـي كُتـب المؤرخيـن الغارقيـن فـي محابـر مدادهـم والرحالـة العاشـقين للجغرافيـا والطوبوغرافيـا ومذكرات

obeikandl.com

قادة الجيوش الذين يقضون العمر على ظهور الأحصنة حالمين بالغزوات والانتصارات، على أن كل مَنْ دخل مدينة وهران غازيا أو زائرا أو ضائعا أو عاشقا إلاَّ وكان دخوله إليها من خلال حيها هذا: حي اللاكدوك، فالمدينة ليست لها أبواب محروسة وبأقواس النصر والشارات وذكريات الحروب كما هي في المدن العتيقة المغاربية الأخرى كتلمسان وبجاية وفاس وسجلماسة والقيروان وغيرها من الحواضر التي تشبهت بقرطبة أو طُلَيْطلة أو إشبيلية أو غرناطة، من دخل مدينة وهران وفَقِهَهَا، عشقها أو ضاع فيها كان له ذلك الدخول من خلال حي اللاكدوك.

اشتُهِر حي اللاكدوك بوهران بماخوره العريق ويشكل هذا الأخير ثلاثة أرباع مجموع مباني الحي المشيدة على هضبة تطل على البحر المتوسط في فوضى منظمة حيث الأزقة ضيقة هابطة أو صاعدة بسلالم أرضيتها مصنوعة من حجر نهري أزرق مائل إلى السواد، واللاكدوك أعرق وأشهر ماخور في إفريقيا البربرية منذ خروج أحفاد ابن رشد وابن ميمون من المسلمين واليهود من الأندلس ذليلين كالكلاب، مطاردين من قبل الملكة إيزابيلا والملك فرديناند عاشق النبيذ والخيل.

وهران، هي ما هي، عاصمة موسيقى الرّاي ومسقط رأس مصمم الأزياء اللواطي الشهير إيف سان لوران دفين مراكش والصحفي النجم جان بيير القّباش والشيخة الريميتي التي قبَّل الجنرال شارل دو غول الوشم الأزرق المرسوم على ظاهر كفيها، وهي أيضا مدينة الشاب خالد والشيخ سيدي الهواري صاحب الكرامات وابن محرز الوهراني صاحب كتاب «المنامات» والخصم

الشرس لفقهاء دمشق وريفها والتي وصل إليها مغامرا، مجتهدا وسليط اللسان.

صحيح أنني أشتغل مغنية ونادلة وغسالة أطباق في هذا المطعم البسيط بل الحقير، وسعيدة كل السعادة بذلك، ومع ذلك تغويني قراءة كتب التاريخ والرحلات والمراسلات، أنا التي درست سنتين بقسم اللغة العربية وآدابها في كلية العلوم الآداب واللغات الأجنبية بجامعة وهران السانيا، ثم تركت الجامعة بعد أن أغراني رفيقي مُومُو أو محند طالب بقسم التاريخ بالعمل معا لمدة قصيرة أملا في جمع بعض المال لمغادرة جهنم هذه البلاد إلى جهنم جديدة في بلاد أخرى قد تكون بنا رحيمة ! لكني اكتشفت، فيما بعد، أن لا رحمة فوق الأرض ولا في قلوب العباد. سأقص عليكم ذلك بتفصيل.

ولأن رفيقي كان يحب وهران أكثر من أي مكان آخر، ولأن قدره ساقه إلى مهنة لم يكن يفكر فيها أبدا سأحكي لكم قصته معها حين يحين الحين فلا تستعجلوني، فقد نسينا مشروع السفر.

حين نسينا الرحيل عن وهران ولم نعد نتحدث عن هذا المشروع نهائيا سألته مرة عن سرِّ هذا الحب المجنون لهذه المدينة الغامضة، فقال لي مبتسما ولم يستغرب سؤالي: أتريدين أن تعرفي لماذا أحب هذه المدينة؟

سكتَ مُومُو قليلا، نظر في كأس النبيذ أمامه ثم قال: أحب وهران لأن فقيها مختلفا عن جميع الفقهاء عاش فيها.

حاولتُ أن أخفي ضحكة، لم استطيع فانفجرت مقهقهة، لم

يلتفت إليّ ولم يزعجه ضحكي العالي هذا، وربما كان ينتظر مني مثل ذلك.

نظرتُ إلى كأس النبيذ نصف الفارغ وهو يلاعبه بين يديه الرقيقتين المثيرتين بأصابع ناعمة مرتبة ومنحوتة بعناية إلهية تثير الرغبة الجنسية، قلت في نفسي: لقد أثر عليه المشروب حتى قبل أن تبتدئ السهرة. كانت الساعة التاسعة ليلا أو ربما تجاوزت ذلك بقليل، أردت أن أرفع رأسي لأعرف الوقت المرسوم على الساعة الجدارية لكني تذكرت بأنها معطلة فبطاريتها ميتة منذ شهر أو يزيد، لذلك لم أكلف نفسي عناء رفع نظري.

وضع مُومُو الكأس جانبا وكأنما أراد أن يطبع حديثه بنوع من الجدية ورجاحة العقل ! وقد أدرك ما يدور في خُلدي من استهزاء بحكاية الفقيه المتميز وعشقه للمدينة، ثم واصل حديثه مغمض العينين:

... في كل تاريخ عظماء وحقراء هذه المدينة من البربر والعرب والإسبان والأتراك والفرنسيين والطليان والبرتغال، يهودييهم ومسيحييهم ومسلميهم وزنادقتهم، من الأمراء والشعراء والقوادين والفلاحين والفقهاء والمترجمين والعدول... من كل هؤلاء جميعا أدهشتني شخصية واحدة هو المفتي الأكبر الفقيه أحمد بن أبو جمعة المغراوي الوهراني المتوفى 1514، شرب من كأسه رشفة وألقى بفمه حبة أو حبتين من الكاوكاو، لماذا هذا المغراوي دون غيره؟ لماذا هو وليس لا الباي بوشلاغم ولا ابن تاشفين ولا إيف سان لوران ولا سرفانتيس؟ لقد كان هذا المغراوي وهو أحد أجدادي الأوائل، فأنا أيضا اسمي محند

المغـراوي، كان هذا المفتي شـجاعا مجتهـدا إذ اجابةً على سـؤال ورد عليه من المسـلمين الإسـبان الموريسـكيين وهم فـي محنتهم التي لا مثيل لهـا في التاريخ مع المسـيحيين المتطرفيـن ومع قضاة محاكـم التفتيـش العنصريـة، وحفاظا علـى أرواح هـؤلاء المؤمنين من المواطنين البسـطاء مـن الإعدام أصـدر الفقيه المغـراوي فتوى تقضي بجواز احتسـاء المسـلمين الخمر بكل أنواعـه، وتناول لحم الخنزيـر، والقيام بـأي فعل محـرم في الديـن الإسـلامي إذا ما هم أجبروا علـى القيـام بذلـك، كما أفتـى أيضا بجـواز إنكار الرسـول محمد عليه الصـلاة والسـلام بألسـنتهم، أي ظاهريا برانيا، شـريطة أن يكنوا له في الوقت نفسـه المحبة فـي قلوبهم العامـرة بالإيمان. كان جدي المغراوي عظيما ومجتهدا، ولأنـه كان يحب الحياة فقد وضع حيوات المسـلمين فوق كل اعتبار، كان يؤمن بالباطن وينكر الظاهر.

لأجل شـجاعة هذا الفقيـه الذي أنقـذ الآلاف مـن المواطنين المؤمنيـن البسـطاء مـن البربـر والعـرب أحـبُّ وهـران وأحـبُّ الوهرانييـن وأعشـقُ لهجـة سـكانها وموسـيقى الـراي التـي ولدتْ بها، وربما لهـذا أحببتك يا مريـولا، كان ينادني بهذا الاسـم، وهو الوحيد الذي ينادني بـه، ولا أحب أن أنادى به إلا من على لسـانه الذي لا عظم فيه، ومنذ أن قرأتُ هـذه الفتوى قررتُ ألا أرحل عن مدينة وهران وأنـا الآن بصدد البحـث عن قبره لكي أرفـع فوقه قبة ولو يقـدر لي وأكون ذا مال سـأعمل على تأسـيس مدرسـة للفتوى والاجتهاد وحوار الديانات أسميها باسمه: المركز الدولي للاجتهاد وحوار الديانات، المغراوي.

ضحكت، وقد استغربت منه هذا الحديث غير العادي وبهذه البديهة الشاعرية والجريئة وهو الشاب الخجول دائما.

قلت في نفسي: كيف لشاب لا يغادر هذا المحل إلا لينام، يخرج من هذا المطعم الحقير آخر الليل وسط عشرات المتسكعين والشواذ ليعود إليه مع غروب شمس اليوم التالي، وفي مثل هذه الساعة المتأخرة من هذا الليل الشتوي البارد، الرطب والحزين، يذكر اسم فقيه لا أحد يعرفه، فقيه لا وجود له سوى في بعض المخطوطات التي سلمت من يد السماسرة، فلا هو السيد قطب ولا الشيخ الغزالي ولا هو القرضاوي ولا عمر خالد ولا هو حتى الزمزمي، لست متيقنة من حقيقة وجود فقيه بهذا الاسم وبهذه الفتوى الجريئة، ربما هو كلام الكأس أو هذيان ليل أو وهم من أوهام مُومُو الذي يتصرف بمنتهى العفوية والحرية، أم أن كل ذلك هو نتيجة تأثير الوضع العام المضطرب الذي يغشى المدينة.

نظر إليّ وقد أدرك حيرتي وشكي في ما قاله من حكاية الشيخ المغراوي، ضحك بصوت عال، ضحكته تشبه ضحكة طفل منبهر بلعبة غريبة، نظرت إليه ولأول مرة أكتشف كم هي جميلة أسنانه، مصطفة بانتظام في بياضها وكأنما رتبت في فمه بهذا الشكل استعدادا لافتراسي، افتراس الغواية ! وأنا أيضا كنت على استعداد تام لقبول أن أكون الفريسة والمُفْتَرَسة باشتهاء ودون مقاومة، كنت مستعدة مع هذا البرد وهذا المطر النازل في الخارج أن أقطع جسدي قطعة قطعة وأطعمه إياه حتى تشبع أسنانه الجميلة وحتى يشبع جسدي من عضها المُشهِّي.

الآن، أكتشف بأن جاكيتاته الجلدية ذات اللون البني الحائل،

المهترئة قليلا عند الكتفين وبشكل واضح عند المرفقين وعند مداخل الجيوب الخمسة، لها جاذبيتها ولها تأثيرها عليّ ربما أكثر من قسمات وجهه ومن بياض أسنانه المهيأة للافتراس ومن ثقافته التاريخية ومن روايته لقصة الشيخ المغراوي صاحب الفتوى، تعجبني فيه عفويته الشعرية والدينية التي تنم فيه عن طفل كبير، نزق وذكي ومُفاجِئ.

من هذا المطعم الحقير، ومن حي اللاكدوك المطل على البحر حيث هذا الماخور العتيق تَخَرَّجَ جمع كثير من المغنيين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات والراقصات والسراق النبلاء والمهربين الوجهاء، مطعم-بار صغير مساحته لا تتجاوز الأربعين مترا مربعا وبمرحاض واحد نظيف دائما، مشترك للنساء وللرجال، يدخله الجميع باحترام وحشمة ونظام، كل حسب دوره، سمي هذا المطعم-البار على اسم الشاعر الكبير أرتور رامبو، لست أدري كيف ومتى أطلق صاحب المحل هذا الاسم الكبير على هذا الفضاء الحقير؟ أكيد إن مالكه الأول ومؤسسه كان قارئا للشعر ومعجبا بجنون رامبو، وربما كان هو الآخر شاعرا يقرض شعرا عن الحب والخمر والسحاق واللواط والأسفار وتهريب الأسلحة والبن والحشيش.

لاحقا روى لي خوسي مالك المحلي الحالي قائلا: منذ الخمسينات، قبل اندلاع الثورة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي، طلب صاحب المحل من أحد الفنانين التشكيليين كتابة قصيدة «يوغرطة» لرامبو والتي يشيد فيها بشجاعة يوغرطة البربري ضد الرومان وبمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري للاستعمار الفرنسي،

كُتبت القصيدة التي ألفها رامبو باللاتينية مع ترجمتها بالفرنسية في شكل لوحات كاليغرافية على قماش حريري وضعت داخل إطارات زوقت أطرافها وحواشيها بأشكال فسيفساء عربية زادت الحرف اللاتيني جمالا وإثارة، اللقاء بين حضارتين، علقت تلك اللوحات وعددها سبعة وثلاثون لوحة وهي بعدد سنوات عمر الشاعر رامبو (1854–1891)، من كثرة ما قرأت وأعدت قراءة هذه اللوحات التشكيلية لقصيدة «يوغرطة» فقد حفظتها وحفظها جل رواد المحل المداومين باللاتينية وبالفرنسية.

قال لي مُومُو ذات ليل معلقا على هذا المطعم وهذا الحي الغريب الذي يوجد به: تخيلي يا مريولا لو إن جميع أنواع الأنبذة وجميع أنواع البيرات العالمية الرديئة منها والممتازة وجميع أسماء الخمارات أطلقت عليها أسماء الشعراء الذين خلدوا قيم الحب والجسد والتسامح والحرية والوفاء ومقاومة القهر الفردي والجماعي من أمثال امرئ القيس وطرفة بن العبد وعنترة وهوميروس وأبي نواس وبشار بن برد وابن الفارض والسهروردي ومجنون ليلى وعمر بن أبي ربيعة وعمر الخيام والنفري والحلاج ورامبو ورابعة العدوية وهنري ملير وابن عربي وابن حزم وابن خفاجة وأرتور رامبو وأراغون وإدغار ألان بو وجاك بريفير وأدونيس ونزار قباني وفولتير و... تخيلي يا مريولا لو طُبِعتْ على جميع إتيكات الزجاجات وعلب الصفيح مقطوعات من القصائد ومختارات من الكلام العالي لهؤلاء الشعراء والكتاب لتحول العالم كله إلى شاعر ناعم وحساس ولأوقفنا الحروب نهائيا ولقضينا على الكراهيات بين الناس وعلى كل أشكال التمييز

العنصري ولتمكنا من دفن النزاعات المحتدمة بين الديانات حول ملكية الله والتنافس غير الشريف على حجز أفضل الأماكن في الجنة ولخفت الصراع بين اللغات وانطفأت النار المضرمة بين الأعراق وبين الطبقات، ولتمكنا من حل قضية فلسطين والأزواد والتيبيك والأكراد وغيرها.

كان كلامه حكيما وهو الذي يكره الحروب والدم والظلم، قبَّلتُه على فمه أربع مرات وبعنف حتى مَصْمَصْتُ لسانه ولامس لساني صف أسنانه المدهشة، أخذتُ رأسه بين يدي ونظرت إلى ماء عينيه قائلة: أنت تتكلم مثل الأنبياء يا مُومُو.

هرب النوم عني فقضيت جزءا كبيرا من الليل وأنا أقلّب في رأسي فكرة «ملايين القناني التي تحمل على إتيكاتها أشعارا وصورا لشعراء» ! وقلت في نفسي وقد أعجبتني حكاية الشيخ المغراوي وفكرة قناني البيرة والخمور والأشعار: كلام السكارى شبيه بكلام الأنبياء وأكثر حكمة من كلام فقهاء وأئمة هذا الزمن الأعوج.

غالبية الذين يرتادون مطعم أرتور رامبو هم من فئة الحالمين بتغيير العالم: شعراء دون كتب، أنبياء سلام بدون وحي ولا رسائل ولا براق، عشاق بخيبات وبأحلام كبيرة، نقابيون يطحنهم اليومي وخيانة السياسيين لهم، عمال ميناء وصيادون أكل الملح منهم الرئة والجلد ولا يتحدثون سوى بالإسبانية وبعض المثقفين الذين ضاقت به المدينة الغامضة النائمة على أمر غريب فهربوا إلى حرارة فوضى هذا المكان البسيط، ويجيء إليه أيضا صحفيون لا يتوقفون عن تبادل التهم بينهم والتنافس الشرس في نشر الإشاعات

والإشـاعات المضادة الأخلاقية منها والسياسـية عن رجال السـلطة من المدنيين والعسـكريين وعن بعض رجال البوليـس الذين فقدوا ثقة مسـؤوليهم فيهم، فأعلنوا الحرب على بعضهـم البعض في ظل هذه الفوضى التي تعم المدينة والبلد، من بيده سلاح يتحسسه بريبة ومن لا يملك ذلك يفكـر في اقتنـاء قطعة... رامبو مطعم بمسـاحة الكف الذي أوسـع مـن الكـرة الأرضية، إنـه الضيق الواسـع، خرم الإبرة الذي يمر عبره الجمل ذو السنمين أو أكثر.

بعد أن كنا نحلم بالرحيل عن وهران، ها هو مُومُو يقرر فجأة: لا نغادر المكان يا مريولا، دون وهران سـنصبح يتامـى، يتم المدن أكبر من يتم ذوي القربى.

ونسينا الرحيل.

.. وكنت سـعيدة أن نسـينا هـذا الرحيـل، فأنا الأخـرى بدأت أكتشـف جمال المدينة وبهجة بحرها وناسها الذين ببطء يؤسسونها من جديد بعد كل زلزال.

obeikandl.com

3

.. والليل إذا عسعس

وقعت عيني عليه، تلك الليلة، وعيني ذات اللون الأخضر صيفا والأزرق شتاء، يشهد الله أن لا رمد بها ولا حَوَل !!

زلزال تحت قدمي.

ذاك الذي وقع عليه نظري هو رجل خمسيني، هكذا بدا لي، يزور مطعم أرتور رامبو كل ليلة سبت، من لباسه الكلاسيكي كان يبدو ميسور الحال، متميزا، طقمٌ على المقاس بالسنتمتر والمليمتر، من تفصيل آخر خياطي الحي من اليهود، ما في ذلك شك، أزرار متناسقة ومنسجمة الشكل والحجم واللون مع خطوط المعطف وتزويقات ربطة العنق وقميص أبيض ناصع بقبة تقليدية، كأن الرجل خارج على التو من وقائع فصل رواية من روايات نهاية القرن التاسع عشر أو بداية العشرين، كأنه شخصية من شخوص ألكسندر دوما الأب أو بلزاك أو شاطوبريان أو لكأنه عبد الجواد

obeikandl.com

في «ثلاثية» نجيب محفوظ، عليه تبدو ملامح رجل سليل أسرة ذات جاه و اسم ومقبرة عائلية خاصة، لأسابيع متتالية راقبته، لم تسقط عيني مِنْ عليه، أعجبني وأدهشني بصمته في وسط هذه الفوضى، هدوء حكيم داخل جلبة منظمة، كان مأخوذا وبشكل كبير بجوقة الموسيقى التي تنشط المطعم نهاية كل أسبوع، نهاية أسبوع المطعم، فصاحب المحل ومن بعده الورثة رفضوا تغيير عطلة نهاية الأسبوع من الأحد إلى الجمعة.

من عينيه وحركات أصابعه يبدو وكأنه كان موسيقيا أو ممثل مسرح، في كل مرة كنت أحاول مطاردة حضوره فيّ ولديّ فأجده يغرق فيّ وفي هواجسي أكثر وأكثر وأغرق في غموضه. كان كالثعلب يظهر ويختفي.

كان الرجل، الذي كل أسبوع يتغير عمره بسنوات، تارة يصغر بسنوات وأخرى يكبر بمثلها، لم يكن متقدما في العمر كما قد يبدو، هو في عمر والدي، هكذا بدا لي، ربما إن الاحترام الذي يُستقبل به من طرف خوسي صاحب المحل ومن قبل جميع الزبائن ومن النادل هو الذي زاد في عمره سنينا، وبذلك ازداد إغراء في عيني، وكان الرجل يحب مثل هذا التعامل ويصر عليه، فبمجرد تخطيه عتبة المطعم يتسابق الجميع ليخلي له المكان المفضل، فللرجل مكانُه وطاولتُه وبعض رهط من جلسائه القلائل، وباب المرحاض مفتوح وشاغر ونظيف ومعطر إذا ما رغب الذهاب إليه.

كنت أراقب كل حركاته بدقة، جلسته وكلامه القليل وحركات يديه وصحته و سيجارته وغيم دخانها وعلبة أعواد الثقاب ومشطة

شعره وعطره ولون طقمه وقميصه وطول أضفاره، كنت أتابع ذلك كله بعين لا تكذب ولا تخطئ ولا تعمى، يظهر ويختفي لكن وجوده في هذا الفضاء كان يسعدني، ينعشني دون أن أجد لهذا الإحساس المدوخ المفاجئ تبريرا أو تفسيرا، شعور غريب يُرابط ما بين الاحترام والترقب، أي ترقب؟

الهدوء الذي يسبق العاصفة، شعرت وكأنني أنتمي إلى فصيلة الكلاب التي تحدس الزلازل قبل وقوعها، هناك في أفق أيامي زلزال مربك ومدمر لهذه الحياة التي بدأت تغرق في روتين ضوضاء المحل وغموض المدينة وتحولات أقرأها على ملامح مُومُو الذي بدأ يغرق في قراءات كتب مثيرة ولا يغادر غرفته في المدينة الجامعية وشرع في إطلاق لحيته وزاد من استهلاك الخمر وتدخين جميع أنواع التبوغ الرديء منها والجيد والحشيش.

كلما ازدادت دقة ملاحظاتي وثبات عيني على الرجل الخمسيني الأنيق، تضاعف إحساسي بالحيرة من تصرفات مُومُو الغريبة وانزوائه وعزلته المطلقة، وقد بدأ يقضي جل وقته بين مخطوطات عربية وإسبانية وبعض رسومات لمُخَططات أحياء المدينة العتيقة وضواحيها ومقابرها الاسلامية واليهودية باحثا فيها عن إشارة أو خبر قد يقوده إلى مكان قبر الفقيه المغراوي، جده الأول كما يدعي، أو كما يتبين ذلك من الاسم الذي فيه يشتركان.

لماذا حين أمشي تحت المطر، يحدث هذا مرات، أو حين أشاهد المطر من علو شرفة أو من خلف زجاج نافذة نازلا بهدوء من سماء رحيمة، أو حين أفكر في المطر هاطلا ولو كان ذلك في عز الصيف، في جميع هذه الحالات تجتاحني رغبة عارمة وشرسة

إلى ممارسة الجنس بهمجية حيوانية، أحب ممارسة الجنس على طريقة الحيوانات: لا أجمل من قضيب حمار مغروس في فرج أتان أو فرس وهي تلوك لسانها ومن فمها يسيل لعاب الشهوة المبدعة، لا أجمل من قط راكب بشعرية ظهر قطة بعد أن يتخلص من جحافل منافسيه في معركة لا تنتهي إلا حين يلجها فتفرح القطة وتتجلى المتعة في أعلى مراتبها، وذاك بالضبط ما حصل، ذاك المساء البارد الماطر حين رأيت الرجل الأنيق الذي في عمر والدي رحمه الله يدخل مطعم ارتور رامبو بكل بهائه وهو في كل وقاره وقد راقبته من خلال النافذة وهو في الزقاق الضيق، على بعد بعض أمتار، تسلقتني حمى الجنس، ارتعش جسدي وأسرعت إلى بيت الراحة وبكيت، لماذا بكيت؟ لست أدري.

تذكرت أنني لم أمارس الجنس مع مُومُو ولو مرة واحدة، وتذكرت خالتي يامنة، خشيت أن يكون مصيري كمصيرها (لخالتي يامنة حكاية مدهشة وتراجيدية سأقصها عليكم لاحقا)، وتساءلت بيني وبين نفسي عن موعد الدورة الدموية، لماذا التفكير في هذا الدم اللعين يسبق كل شيء بمجرد أن تفكر المرأة في الجنس أو في العمر؟

لحظة تخطي الرجل الأنيق عتبة المحل الغارق في الدخان والضوضاء وغناء الشيخة الريميتي بالتناوب مع رينات الوهرانية، حيث تدور الأسطوانات من نوع 33 دورة على طبق آلة فونوغراف روسية الصنع موضوعة فوق طاولة على الزاوية اليمنى للكونتوار، كان خوسي الأربعيني صاحب المحل بشعره الأشقر الطويل المسدول والمصبوب خلف ظهره في ضفيرتين طويلتين تنزلان

بانتظام حتى أسفل إليتيه واقفا مبتسما دائما من خلف الكونتوار اللوحي العتيق حيث مكانه الذي لا يكاد يغادره إلا لماما.

أسرع خوسي لاستقبال الرجل، أرسل إليه عبارات الترحيب باللهجة الوهرانية، بادله الرجل ذلك بتحية بلغة إسبانية دون لكنة، وكما فعل صاحب المحل، نظر الزبائن جميعهم من خلف كؤوسهم ومن أعماق صمتهم أو ضجيجهم وأرسلوا التحيات، كل على طريقته، لمَقْدَم الزبون، وكأنما الجميع كان في انتظاره، حياهم بإشارة من يده ثم تقدم إلى طاولته المعتادة التي انسحب من حولها، وعلى الفور، ثلاثة زبائن، حتى قبل أن يطلب منهم النادل ذلك.

هي طاولته.

جلس الرجل، ورمى بنظره باحثا عن شيء ما ضاع منه في هذا الزحام. بمجرد دخوله جاءتني رغبة الغناء، هذا الرجل، يوقظ فيّ حب الغناء، لماذا؟ لست أدري.

الآن فقط أقيم علاقة ما بين الرغبة في الغناء وظهور هذا الرجل في المكان وفي الزمن.

في حضرته تحضرني وبشكل عفوي أجمل الأغاني الجزائرية والعربية واليهودية الوهرانية والإسبانية والفرنسية، بكل لغات الطير أغني، في وجوده وتحت نظره المرسل إليّ من عينين غارقتين في حشمة العارفين أو أولاد البيوتات الكبيرة، كان صوتي يسيل عسلا.

له، كنت أغني، أنفجرُ لحنا جميلا.

مع مرور الزمن، ليلة بعد أخرى، سهرة بعد أختها، وجدت نفسي ألبس، قبل أن أصعد للغناء، ما يثيره من ألوان وأشكال،

وأضع الحلي التي تبهج والعطور التي تلتقط أنفاسه، عيني عليه وعينه عليّ. كنت أَراني في المرآة فأتساءل بيني وبين نفسي: هل سيرضيه هذا؟ هل سيثيره؟

الحقيقة أنني أصبحت كأنما أغني له وحده، نسيت من حولي من هذا الخلق الذي يجيء مطعم أرتور رامبو كل ليلة.

كان يحب رينات الوهرانية وأم كلثوم وقد أصبحت أنا الأخرى أحبهما وأغار منهما معلقتين في صوتي!!

مع نهاية السهرة، مع طلوع الفجر، وبعد أن يغادر غالبية الزبائن أجلس إلى طاولة الرجل الذي بعمر والدي، أشاركه قبل أن يغادر كأس نبيذ وأغرق في صمته ونظراته قليلا، كان لا يتكلم إلا بعض الجمل المتقطعة، يقبلني على رأسي وأقبل ظاهر يده بحنان مشوب برعشة تصعد من أخمص قدمي لتبلغ قمة رأسي.

مع سماع الصوت الرخيم لمؤذن الفجر يغادر المطعم.

أنظر إليه وأذني أنا الأخرى على صوت مؤذن الفجر.

لمؤذن الفجر حكايته لا تشبه حكاية خالتي يامنة ولكنها غريبة أيضا، سأرويها لكم على الفور حتى لا أنسى تفاصيلها دون زيادة أو نقصان كما جاء في قَسَم أداء اليمين المثبت في بداية أوراق هذا الكتاب.

4

.. والنهار إذا جلاَّها

سبحان مبدل الأحوال، هي الأيام هكذا، فمؤذن الفجر ذو الصوت الرخيم هذا، هو صديقي مُومُو المعجب بجده الشيخ المغراوي الوهراني والذي كان قبل أشهر قليلة يرافقني في الغناء بعزفه المثير المبدع على عوده الدمشقي العتيق، ومرات كان لا يتردد في مشاركتي الغناء بصوته الأنثوي الجميل، من على هذه المنصة الصغيرة، وفي هذا المطعم البسيط أو بالأحرى الحقير المدهش قبل أن تحاصره سيول الخطب الجارفة لرجال دين متشنجين متعصبين والذين ملأوا المساجد ودور العبادة وحلقات الأسواق والأحياء الجامعية فتسحبه نحو بالوعة لا أحد يدري بأي مصب أو مزبلة ستلقي به ذات يوم قريب أو بعيد.

كَحَّل مُومُو عينيه وسوك أسنانه وأطلق لحيته واستبدل سروال الجينز بعباءة أفغانية وعوض زوج حذاء جوكس بزوج

obeikandl.com

نايك الرياضي، وحده الجاكيت الجلدي العتيق المهترئ لم يتنازل عنه، بين عشية وضحاها أصبح حفيد الفقيه المغراوي من القانتين الخاشعين الذين لا يغادرون قاعة الصلاة إلا للميضأة أو لحلقات الدرس أو للاجتماعات الحزبية مع بعض الإخوان الغامضين.

ضحكتُ وحزنتُ وخفتُ وأنا أصادفه على هذه الحال وهو يحاول الهروب مني متفاديا النظر إليّ أو محادثتي.

من صغري، أحب آذان الفجر، حيث كان لنا مؤذن حنون الصوت وكانت أمي تزجرني وتطلب مني أن أعود إلى سريري إذ تجدني جالسة عند العتبة، فاتحة عيني على وسعيهما في اتجاه المنارة حيث نُصِب مكبر الصوت الذي يشتغل ببطارية كبيرة تشبه بطارية الجرار الوحيد في القرية والذي كنت أحب صوت محركه القوي في النهار، وعند الفجر أرنو إلى صوت المؤذن المدهش النازل من سماء الله الغارقة في صمت غسقي فيثير فيّ البكاء والخوف والمتعة التي تنتهي برغبة في التبول ورعشة في الجسد بمجرد الانتهاء من رفع الآذان، مثلي، كانت أمي تعشق صوته عشقا جنونيا مما حرك في والدي نار غيرة مدمرة دفعت به بعد صبر طويل للتآمر على هذا المؤذن وذلك بأن دبر له قضية أدت في النهاية إلى طرده من المسجد العائلي الصغير الذي كان يجاور بيتنا والذي تعود ملكيته الأصلية لجدي الأول الحاج عبد المؤمن بوطالب الذي كما تحكي كتب والدي وبعض وثائق الأملاك، أنه هاجر إلى القدس ومات بها وهو يحارب الصليبيين في صفوف جيوش صلاح الدين الأيوبي إلى جانب سيدي أبي مدين الغوث.

نكاية في أمي فقد نصب أبي سرا خصمتها اللدودة خالتي

يامنة صاحبة الصوت الخارق بديلا للمؤذن العاشق لتولي مهمة الآذان.

لخالتي يامنة عداوة قديمة مع أختها، أي أمي، تعود إلى ليلة الخطوبة، إذ يروى، والله أعلم، بأن والدي حين أرسل جدي وجدتي في طلب يد ابنة عمه، كان يرغب في يامنة التي كان اسمها على كل لسان لذكائها ولصوتها الجميل وسالفها الطويل، لكنه زُوج بأختها الكبرى، إذ في أعراف وتقاليد الزواج لا يعقل ولا يسمح للأخت الصغرى أن تتزوج قبل الكبرى أو الكبيرة، ومنذ ذلك اليوم لم تكلم خالتي أمي ولم تُعيِّد عليها ولم تحضر فرحا أو قرحا في بيتها، ومن يومها أيضا لم تخمد رغبة والدي في خالتي يامنة، ظل يطاردها أعواما وأعواما كالكلبة الساخنة.

حين عرض أبي على خالتي يامنة صاحبة الصوت المدهش فكرة تولي مهمة آذان الفجر، على الفور فهمت بأن تلك مؤامرة للتخلص من مؤذن الجامع عشيق أمي، فرحبت بالفكرة وسعدت لها لأن ذلك سيحزن أختها وسيكدر حياتها وربما سيدفع بها للموت كآبة فيخلو لها الجو للانتقام منها باحتضان والدي واستعادته بعد أن فقدته مدة أزيد من ربع قرن.

كانت خالتي وقبل أن تصعد إلى المئذنة ترتدي ألبسة والدي من سروال وجلابة وشاش أبيض تلفه على رأسها وعنقها، وتنتعل بَلْغُة فاسية أو تلمسانية صفراء، تتناول ملعقتين من العسل الحر الذي يجلب من نواحي جبال جرجرة ثم تتسلق بحرارة وخفة سلاليم المئذنة.

يشهد الله وجميع المؤمنين أن صوتها الجميل هو الذي رفع

من نسبة عدد المصلين حتى امتلأ المسجد على آخره وفاضوا على الرصيف، وقد عُرف أهل المدينة من المؤمنين، قبل مجيئها على رأس المئذنة، بالكسل وعشق نوم الصباح والتراخي في أداء صلاة الفجر خاصة أيام الشتاء الماطرة الباردة، وهو أيضا ما غير من عادات ساكنة المدينة فقد بدأ الجميع ينهض باكرا ويقال إن الإنتاج من الصوف والحياكة وتحميص القهوة قد تحسن نوعه وزاد حجمه وارتفع عدد بيض الدجاج بأضعاف مضاعفة، فالدجاجة أصبحت تبيض مرتين في اليوم الواحد، وعاش الناس في رفاهية ونشاط وخف العنف وبدا على الناس من سكان المدينة، منذ ساعات الفجر الأولى وحتى العشاء، علامات الابتسام واختفى الحزن والعبس من على الوجوه أو كاد. وحتى ديكة القرية بدلت من طرق رفع أصواتها وأصبحت تنافس صوت المؤذن(ة).

ومن جراء ذلك دخلتْ أمي في حالة من اليأس والكآبة مما جعلها تقرر ألاّ تضع رجلا خارج عتبة غرفتها وقد سدَّتْ أذنيها بالشمع الأحمر والقطن حتى لا تَسمعَ صوتا يجيء من المئذنة بديلا عن صوت عشيقها الذي اختفى، وقررتْ أن تظل مشمعة الأذنين لا تسمع صوتا ولا تكلم أحدا إلا بالإشارات حين ترغب في كأس ماء أو قطعة خبز أو حبة تين مجففة مغمسة في زيت الزيتون أو فنجان قهوة وقد كانت عاشقة للقهوة التي تشربها ثقيلة ومخلوطة بالحبة السوداء المطحونة.

مرات كثيرة، حاولت أن أقنع أمي بإزالة الشمع الأحمر والقطن من على أذنيها فأقسمت بأنها لن تذهب إلى قبرها إلا بهما مشمعتين تشميعا قضائيا، عادة واحدة لم تستطع أمي التخلّي عنها،

إذ كانت ومع حلول موعد ساعة رفع آذان الفجر تجلس على حافة عتبة الغرفة رافعة نظرها إلى السماء دون أن تسمع أي صوت، لكن ذات فجر حدث ما لم يكن في الحسبان، وإذ هي جالسة كعادتها في مكانها مشمعة الأذنين لمحت طيفا يشبه طيف أختها يامنة يتسلل من الباب الصغير الذي يفصل بين بيتنا وفناء المسجد، كان الشبح متجها نحو السلم الذي يؤدي إلى المئذنة، في البداية اعتقدت أن وراء هذا الخروج المبكر قبل الآذان بلحظات هو موعد غرام ومثل هذه المغامرات ليست بغريبة على يامنة الجريئة والقادرة والساخنة والتي قرأت مثلها في الشعر وفي ألف ليلة وليلة وفي السيرة النبوية الشريفة وفي كتب رسائل القيان للجاحظ وطوق الحمامة للفقيه ابن حزم، لكن هاتفا قال لها: إن في الأمر أمرا آخر !! انتظرت قليلا ثم كعادتها انسحبت إلى فراشها بعد أن فات موعد الآذان، دون أن ترفع الشمع من أذنيها، لكن شيئا كالوسواس سكنها من حركة أختها يامنة وفي مثل هذه الساعة من الفجر.

فجر اليوم التالي، مقرفصة كعادتها عند العتبة وقد لفت جسدها في غطاء صوفي اتقاء للسعة برد غير عادي، وكما في فجر اليوم السابق لمحت أختها متلبسة في ثياب رجل تعبر ذات الباب الضيق متجهة نحو سلاليم المئذنة، ولأول مرة ومنذ أن طُرِدَ عشيقها خطت أمي بعض خطوات بعيدا عن العتبة كي تتأكد مما تراه عينُها، وانتظرتْ بعض الوقت حتى انفض الناس من أداء صلاة الفجر التي كانت خالتي يامنة تؤديها متنكرة في لباس رجل بين صفوف الرجال دون أن يكتشف أحد ذلك، لقد تأكد لأمي ما رأت عينُها، وأن خروج أختها يامنة في مثل هذا الوقت من طلوع النهار

له علاقة بآذان الفجر.

وفي فجر اليوم الثالث، وإذ لمحتها تصعد السلاليم، رفعت دون انتظار أو تردد الشمع الأحمر والقطن عن أذنيها، وعلى التو شعرت بما يشبه الدوخة أو فقدان الوزن والتوازن، إذ لم ترفع ذلك منذ تسعة شهور أو يزيد، وقد صعقت وهي تسمع اليامنة ترفع آذان الفجر بصوتها المثير الرائع والذي غطى على صوت صاحبها وجعل الناس تنساه نهائيا، فأقسمت أن تنتقم منها شر انتقام وهي المرأة البائرة الملتحية.

انتظرتها حتى عادت، لكن هذه المرة واجتها بالتحية قائلة: صباح الخير أيها المؤذن (ة) !! لم أكن أعرف يا يامنة يا ابنة أمي بأنه نبت لكِ زبٌّ الرجال كي ترفعي الآذان على مؤمني المدينة من أعلى منارة بناها سلف شريف استشهد في القدس !!

وعادت أمي إلى فراشها فرحة لتنام نوم المنتصرة على أبي وعلى أختها شريكته في المؤامة على صاحبها وعشيقها المؤذن، ولكن أمي لم تصح من نوم تلك الليلة السعيدة، فقد طال نومها، إذ قيل أنها وجدت ميتة مع مطلع أول خيوط شمس ذاك اليوم السعيد، يوم الانتصار على أختها.

من قتل أمي؟

هل كان موتها من شدة الفرح باكتشافها المؤامرة وسعادتها بأنها قادرة على أن تنتقم من أبي وعشيقته صاحبة اللحية؟

هل قتلها والدي كي يخلو له الجو باليامنة؟ لا أعتقد ذلك فوالدي رجل رومانسي لا يؤذي نملة ولا يفقس بيضة مخافة أن يطلع له منها كتكت حي.

هل قتلتها يامنة، لا أعتقد فيامنة لم تكن تحب والدي بل كان عينها على رجل آخر، ولم يكن يعجبها والدي فهو رجل تنقصه الشجاعة في اتخاذ المواقف المناسبة في الأوقات المناسبة.

أنا أعتقد أن أمي ماتت من الفرحة وذلك أجمل موت يمكن أن يتمناه الإنسان حين ينتصر على خصومه أو أعدائه.

ماتت أمي سعيدة.

المهم أنهم دفنوها دون أن يسأل أحد عن سبب موتها، ففي عائلتنا مات كثيرون من الصغار والكبار، من الذكور ومن الإناث ولم يسأل أحد عن سبب موتهم، دفنت أمي بجنازة كبيرة وبصلاة ودعاء بالغفران وقراءة القرآن الكريم لمدة ثلاث ليال متواليات من قبل فريق قراء الجنائز المتكون من سبعة حفظة جميعهم عميان.

صغيرة ومنذ عرفت بحكاية خالتي يامنة وتوليها مهمة الآذان، وذلك ليس بغريب عليها، وكيف أن صوتها الجميل أثر على سكان المدينة فازدادت تجارتهم وارتفع اقتصادهم وقلت عصبيتهم وتوسعت ابتساماتهم وكثر نسلهم بأطفال جميلين، منذ أن سمعت تلك الحكاية أصبحت أومن بأن التسامح في الحياة وحبها لدى المسلمين يُلْمَسُ، أولا وقبل كل شيء، في حسن اختيارهم أصوات مؤذني مساجد المدينة، وخاصة مؤذني الفجر.

أتذكر حكاية أمي، وها أنا قد رويتها لكم دون زيادة أو نقصان والله يشهد على ذلك، أتذكرها بتفاصيلها وأنا أتخيل مُومُو رفيقي المؤذن ذا الصوت المدهش يرفع آذان الفجر ويطل من أعلى المنارة على الزبائن الذين يعرفهم بأسمائهم واحدا واحدا فيراهم يغادرون مطعم أرتور رامبو الحقير الشهير يجرون تعبهم وخوفهم

مما قد تخبئه لهم هذه الأزقة الشعبية حيث كثرت الاعتداءات والقتل والتهديد باسم الدين، من قبل ميليشيات الأخلاق وشبيبة الحزب الديني الذي استولى على بلدية وهران بعد الانتخابات الأخيرة.

أنا أحب الحياة وأكره السياسة.

ربما عِشقُ أمي لمؤذن الفجر وجنون وغيرة والدي من سحر هذا الصوت وخوفه من أن يختطف زوجته أو يرحل بعقلها الذي كان يعبد الموسيقى هو الذي جعلني ومنذ صغري لا أفوِّتُ عليَّ سماع صوت مؤذن الفجر. إني أعتقد أن سماحة قيم الدين وجماله تظهر وتتجلى أولا في جمال وسحر أصوات مؤذنيه، فالأمة التي لا تملك أصواتا جميلة للآذان وأخرى لقراءة كتاب الله القرآن الكريم أمة قابلة للتطرف واللاتسامح.

مع مجيء هذا الحزب الديني وتوليه إدارة شؤون مدينة وهران، غابت الأصوات الجميلة من على أعلى المنارات والمآذن الأندلسية وعُوِّضت بأصوات نكراء مُنَفِّرة، تُشعرُك بالتهديد وهي ترفع النداء للصلاة وتذكر اسم الله ورسوله الكريم، فالآذان على حناجرها كأنه تحذير ونذير ودعوة للحرب لا دعوة لإشاعة التسامح والمحبة في قلوب المستمعين من المسلمين ومن غير المسلمين، من ذلك يبدو لي أن كثيرا من المصلين الذين يتسابقون على الوقوف في الصفوف الأولى لأداء الصلوات هم من الفئة الخائفة من أصوات المؤذنين أو الانتهازية الباحثة عن منصب في ظل هذا التحول السياسي الذي تعرفه البلاد، الناس تعيد تموقعها وتتمركز في أماكن حساسة تحسبا لغد مضبب الملامح.

تعلق الرجل الأنيق الذي في عمر والدي بصوتي وتعلقتُ بصمته وسكوته وغموضه، تعلق بغنائي وتعلقتُ بنظراته وبحركات يديه وبطريقته الملكية في الجلوس وفي التدخين الذي من فمه يرسل غيوما من دخان في شكل أحلام، حين أصعد المنصة الصغيرة مع نهاية كل ليلة أشعر وكأني أغني له وحده، في حضوره كما في غيابه.

ربما أنا في عمر ابنته ولكن شعوري تخطى موقع الابنة إلى مرتبة أعلى، مرتبة الفوضى والارتباك، كنت أريده لي، لي أنا وحدي، حين يغادر المطعم في آخر الليل أشعر بانحباس في التنفس، رعشة في الجسد، حمى، أصعد الزقاق حافية وأفتح باب شقة أم خوسي الحاجة شهيرا الطيبة التي منحتي غرفة مجانا ومنحتني قلبها وأشعرتني بخوفها عليّ، خوف يشبه ما كانت أمي تبينه لي حين أتغيب أو أتأخر أو تتأخر عني عادتي الشهرية.

قالت لي الحاجة شهيرا بعد أن توقفتْ عن العمل في المطعم أين اشتغلت طوال عشرين سنة إلى جوار ابنها خوسي: لم يرزقني الله بنتا، أنتِ ابنتي وهذا المنزل منزلك وخوسي أخوك من الحنان ومن المدينة.

وجدت نفسي دون طلب أو تخطيط أعوض الحاجة شهيرا في جميع المهام التي كانت تقوم بها في مطعم أرتور رامبو: أساعد في المطبخ وأقوم بخدمة الطاولات وأغني وأغسل الأطباق والكؤوس بعد أن يغادر جميع الزبائن المحل، لم يكن لي عمل واضح، ولم أطلب ذلك، هي الأخرى، أي الحاجة شهيرا، كان لها صوت جميل لولا أن مرضا خبيثا خرب حبالها الصوتية وهاجم

الحنجرة الذهبية.

مُومُو صديقي المؤذن هو الذي جاء بي لأول مرة إلى هذا المطعم، لم أسأله كيف وصل إليه، كان يحمل آلة العود الدمشقي معه، لا يفارقه، وقد تعلم العزف على العود على يد أستاذ العود الشهير في مدينة وهران الأستاذ عبد الله الرحموني الذين كان مغرما بمحمد عبد الوهاب وأنريكو ماسياس ويحفظ كثيرا من أشعار مفدي زكريا.

بدا كل من خوسي وأمه سعيدين وهما في استقبالنا، في أول مجيء لي صحبة مُومُو إلى هذا المحل، وحين غنيت أمام زبائنه أغاني رينات الوهرانية جن جنونهما، حتى أن ذلك أثار غيرة رفيقي مُومُو عازف العود حين شاهد خوسي يقبلني أربع مرات على وجنتي بعد الانتهاء من وصلة الغناء، لم تنطفئ نار الغيرة في قلب مُومُو ولم يستعد هدوءه إلا بعد أن عرف أن خوسي رجل مخنث، فأبدى راحة وتشجيعا لي على الغناء.

يذكرني الرجل الأنيق الذي بدا لي شبيها بأبي بأيام ومحاضرات الجامعة التي تركتها بعد سنة ونصف السنة من الدراسة قضيتها في قسم اللغة العربية وآدابها، حين أجلس إليه فأسمع منه بعض مقاطع من قصائد الشعر الجاهلي التي يحفظها ويعشقها وأتذكر أن كثيرا منها كانت مقررة علينا في السداسي الأول من السنة الأولى جامعي. كلما ما تعلمته من الجامعة هي ما حفظته من مقطوعات شعرية من زهير بن أبي سلمى وامرئ القيس وعنترة بن شداد والنابغة الذبياني وتأبط شرا والتي كان يدرسنا إياها أستاذ مساعد خريج جامعة القاهرة معتد بنفسه ومنبهر بسيارته

من نوع بيجو 504 ذات اللون الأزرق اللامع والذي كثيرا ما دعاني للركوب معه فيها، وكنت أرفض دعوته خوفا من نظراته التي كانت تعريني كلما مـررت بمحاذاتـه وأنا أقفز كالفراشـة فـي ذاك الرواق الضيق المـؤدي إلى مـدرج الإبراهيمي حيـث كنا نـدرس، لم يكن يعجبني هذا الأستاذ، كنت أشـعر به خارج التاريخ، لذا أقفلت عليه كل منافذ حلم الوصول إلى جسدي.

مع مـرور الأيام تعلـق كثيـر مـن رواد المطعم بصوتـي، كلما أشـاد أحدهم بجمال صوتـي تذكـرتُ خالتـي يامنة وشـدني حنين جارف إليها، مـن خلف الكؤوس الفارغة أو العامـرة، كانت العيون كثيرة تلتصق بـي، لكن فـي المقابل، عينـي كانت لاصقـة، كما في كل ليلة، بالرجل الذي يشبه والدي والذي كان مصرا، مع نهاية كل سـهرة، أن يقبلني علـى ظاهر كفي وعلـى جبهتي، فـي الحين يعلق البعض الآخر قائلا: إن صوتك المدهش قادر على إسقاط كثير من صولجانات ملوك العرب والبربر والأكراد والنقابات.

obeikandl.com

5

الثعبان الذي يظهر ويختفي

هذه الليلة، انتظرته فلم يأت الذئب الذي يظهر ويختفي، غاب وهو الذي كنت أعتقد أنـه لا يخلف وعدا ولا يتخلـف عن طاولته التي في غيابه بدت حزينة فاقدة لكل ما كانت تحمله إليّ كل مساء من بهجة وانتباه وارتباك.

حين لم أجده شـعرتُ كأنني فقدتُ أبي مرة ثانية، موت مكرر لعزيز لا يتكرر.

هل جربتم حرقة أن يموت لكم عزيز مرتين !!

شـعرت بالأرض قد فقدت صلبهـا من تحـت أقدامي، داخت من تحتي ودخت من فوقها.

الآن أشـعر أنني كنت أغني له، له وحـده ولأجله، وأن صوتي لـم يعـد يطاوعنـي فيسـيل عسـلا ونـورا كمـا كان كل مسـاء، مـع نهاية السـهرة، كالعـادة أصعد إلى المنصـة الصغيرة فـي ذاك الركن

obeikandl.com

القصي !! ألتفت ذات اليمين وذات اليسار فأجد المطعم في غيابه حزينا على الرغم من ضجيج الزبائن وتحياتهم وتشجيعهم لي.

احتراما لأم خوسي الحاجة شهيرا أغني، أقوم بواجبي على مضض وأنتظر، أنتظر شيئا آخر، ينصرف الزبائن واحدا واحدا. يفرغ المطعم ويهدأ المكان، يرتفع صوت مؤذن الفجر رخيما فيزيدني حنينا فأشعر بشبه ألم ينزلني ليستقر في أسفل المعدة، أجلس إلى الطاولة التي تعوَّد الجلوس إليها، صامتة، سارحة البال، أبقى بعض الوقت، أدخن سيجارة أو اثنتين، أحاول أن أستعيد عطره وابتسامته وصمته وجمله القليلة الشحيحة، رافلة في سر سميك، أغادر المطعم على أمل أن ألقاه غدا.

في اليوم التالي، كالعادة، أستيقظ في حدود الساعة العاشرة، على صوت الحاجة شهيرا التي تحاول أن تستر خلل صوتها وهي تصارع سرطان الحنجرة الخبيث: النهار طلع يا بنيتي والقهوة بردت.

بصعوبة وكسل أغادر السرير، لأجد نفسي أدور كالطائر في فقص من حديد، أشرب قهوتي المفلفلة والتي تعدها لي ككل صباح الحاجة شهيرا، أسخنها للمرة الثالثة وأسرع كي ألحق بها ساخنة، أشعر بتعب وشبه دوخة في رأسي، أنتبه بأن الألم ليس ألم العادة الشهرية فهذا ليس موعدها، أحاول أن أعود إلى السرير لأواصل نومي، يهرب من عيني النوم ويستوطنني وجه الرجل الخمسيني الأنيق، أخشى هذا التعلق به إلى حد أصبح كالهوس، أشعل سيجارة أخرى فأجد مذاقها مرا فأسحقها في مرمدة زجاجية نظيفة بعد أن أسحب منها نفسين أو ثلاثا، من سريري، من النافذة

التـي تقابلنـي، أراقب حركـة الشـمس التي تراقـص غيومـا تحاول جاهـدة أن تغطي السـماء، أنتظر نزولها نحـو المغيب عسـاها تنزله معها هـذه الليلـة مـن سـماء اختفائه ليحـط علـى طاولتـه المعتادة كالطير الحر.

أقضي النهار في السرير.

غادرتُ الغرفة مرتين لدورة المياه.

هذا الرجل يتعبني، يُجَنِّنُني.

أفكـر فـي أن أهتـف إلى خوسـي لأخبـره بأننـي متعبـة وأنني مضطرة للبقاء في البيت، أحمل السـماعة أركب الرقم الذي أحفظه عـن ظهـر قلـب 0314626، ثـم قبـل أن يجيب خوسـي فـي الجهة الأخـرى أقفل الخـط وأقـول: ربمـا سـيجيئ الليلـة، إذن علـيّ أن أذهب.

أقفز من سـريري، الليل سـقط من السـماء، علـى عجل أجهز حالي، وأنزل مسرعة كما وأنني أسـابق الرجل الأنيق للوصول قبله إلى المطعم.

وأنتظـره، أسـمِّر عينـي علـى بـاب المطعـم وأقـول سـيدخل اللحظـة، وتمـر اللحظـة والسـاعة والسـاعات ولا يدخـل، أغنـي للغائب، أغني للفراغ، تنتهي السهرة وينصرف الزبائن كما في الليلة الماضيـة انصرفـوا، وأجلس وحـدي إلـى الطاولة يمنحني خوسـي سيجارة مشعولة وكأسا لا أشربها، ثم أسحب جثتي إلى شقتي، في الطريق أقرر ألا أجيء غدا.

وحيـن يصبح الصبـاح، صبـاح آخر، أقـول بيني وبين نفسـي، كما البارحة قلتُ لها، وأنا أحتسـي فنجان القهوة المعصورة في آلة

المولينكس، وأشرب سيجارة المارلبورو المهربة: الليلة دون شك لن يخلف الوعد.

على سريري الذي لا أغادره إلا مرتين للمرحاض كالعادة، مثل البارحة أراقب نزول الشمس رويدا رويدا من خلف النافذة ذاتها وهي في صراع مع جيوش من الغيم متقمصة وحوشا وطيورا خرافية، السماء ذاتها وأشكال الغيم لم تتغير، أدخل الحمام وأظل هناك وقتا طويلا في انتظار المساء، النهار بدا طويل الساعات، ثقيل الإيقاع مع أننا في شهر فيفري حيث هي أقصر أيام العام.

أكتشف الآن بأن الوقت في طوله وقصره، حرارته وبرودته، جفافه ورطوبته هي مسألة داخلية ولا علاقة لذلك بالساعة أو الدقائق أو طلوع الشمس أو غروبها أو الفصول أو السماء بغيومها أو صفاء زرقتها.

اليوم، وأنا أدخن السيجارة الثانية، قررت أن أنسى الرجل الأنيق الذي يشبه أبي، أن أمحوه من رأسي.

كلما شرعت في التفكير في طريقة لنسيانه وجدته أكثر إلحاحا في وجودي، إنه يستولي على كل ما فيّ وما حولي.

هل التفكير في هذا الرجل الذي يشبه والدي وبهذه الطريقة المجنونة هو استيقاظ لإحساس عشق دفين لأبي، على كلٍّ: كلُّ بنت بأبيها معجبة. الحقيقة ما كان يُغريني في والدي هو حكاية تلك الغيرة التي حركته جراء تعلق أمي بالمؤذن، وقصته مع خالتي يامنة التي أحبها أو رغب فيها ولم يتزوجها لخطإ أو حيلة دبرت له.

أخيرا اهتديت إلى فكرة ربما هي الحل القادر على محاربة

صورة هـذا الرجل والتـي تعذبنـي من الداخـل: هكذا شـرعت في اسـتعادة شـريط وجوه جميـع الزبائن علنـي أعثر علـى واحد منهم يمكنه أن ينسـيني صـورة الرجـل الأنيـق الـذي أنتبـه الآن بأنني لا أعرف حتى اسـمه !! سأسـميه: أبـو بكر، ثـم انتبهت إلـى أن ذلك هو اسـم والدي، فترددت. لكني قلت في نفسـي: إنه الاسـم الذي يناسـبه، ولـن يكـون إلا ذاك هو اسـمه الحقيقـي حتى ولـو اختلق لنفسه اسما آخر، يبدو قويا بدون اسم أكثر من سجنه في اسم ما.

أقف قدام المرآة الكبيرة المنصوبة علـى قاعدة من لوح والتي طولها تقريبا بطول قامتي، أنظر إلى وجهي المغطى بكريمة البِشْـرة من نوع نيفيا التي أعشـقها منذ الصغر وأحب فيها بالأساس عطرها الـذي يذكرني بخالتـي يامنة التـي كانت تغمـس أصبعها فـي العلبة الدائرية ذات اللـون الأزرق ثم تلحسـها وتمص لسـانها كما يُمَصُّ أصبع غُمِر في العسل، أحدق في صورة جسدي النحيل قليلا والتي تقابلني فـي المـرآة وأحـاول أن أسـتعيد ثانيـة وثالثة شـريط وجوه زبائن المطعم واحـدا واحدا: المهذار منهم حين يسـكر، والصامت حين آخـر الليـل يخـاف مقابلـة زوجتـه مخمـورا، والقصيـر الذي يقف على زوج حـذاء بكعب عال وكأنه يطل علـى العالم من نافذة مـا، والأصلع ذو الكـرش المتدلية، والرقيـق ذو الابتسـامة الكاذبة، والمثقـف ذو اللسـان السـليط ضـد السـلطة، والمسـؤول السـامي الذي دارت عليه الأيـام وافترق من حوله الخـلان، والمقاول الذي لا يتردد في دفع مشـروب الجميـع إذ يعن له ذلك بعـد صفقة نهار رابحة، وأسـتاذ الجامعـة الـذي يختفي فـي الركن المظلـم حتى لا يراه طلبته الذين يتقاسـمون قنينة البيرة الواحـدة والضحكة الكبيرة،

وأستعيد تقاسيم وجه خوسي أيضا ولا أستبقي من الشريط وجها، الملامح جميعها غائمة مطفأة إلا وجه الرجل الذي سميته باسم والدي يحاصرني من جميع الجهات.

أدقق النظر في الجميع كأنما أبحث عن شيء ضاع مني، أستعيد هذا المشهد للمرة الرابعة والسابعة في رأسي ولا وجه يتحدد، فجأة سكن مخيلتي وجه مُومُو عازف العود الذي أصبح مؤذن المسجد الصغير المحاذي للمطعم، برز وجهه قويا في رأسي، هجم عليّ استوطنني، شعرت به يزاحم صورة وجه الرجل الأنيق الذي يشبه والدي في الاسم، ربما، وفي الشكل والابتسامة.

وحده مُومُو مخلصي من هذا الرجل المسيج بسر وفتنة.

لماذا نسيت أو تناسيت هذا الشاب الوسيم القادر على إخراجي من هذا الوجع، وبدأت أركز تفكيري عليه، لكن كلما ركزت تفكيري على ملامح صورة مُومُو الشاب المؤذن وعازف العود الماهر كنت أشعر وكأنني أخون الرجل الساحر الذي بعمر والدي، فأصاب بارتباك داخلي، فتحاصرني بشكل عنيف ملامحه أكثر فأكثر، أبكي وأشعر بالضياع.

هكذا، ومع نهاية كل سهرة، كنت أنتظر صوت مُومُو، يصلني مع كل فجر من أعلى المئذنة، ينزل عليّ كرسالة عشق سماوية، لم أكن أسمع كلمات الآذان، ما كان يصلني هو استجابته لي، استعداده لتخليصي من زوبعة هذا الفراغ، كنت أترجاه أن يقتل فيّ صورة هذا الرجل الذي خطف عقلي واختفى دون سابق إنذار.

مع مرور الأيام، طبقة فوق طبقة تَراكَمَ غبارُ غياب الرجل

الأنيق الذي أطلقت عليه اسم والدي، ولكني لم أتجرأ مناداته به ولو لمرة واحدة مع أنه يناسبه تماما، أخذتْ شقوقُ الذاكرة تسرب لي قليلا قليلا صورة مُومُو الذي تركني في المطعم واختار أن يصعد إلى رأس المئذنة كي يرفع اسم الله ورسوله بصوته الأنثوي الرخيم.

في الخارج، تعيش مدينة وهران وضعا سياسيا متشنجا وأخبار القتل والاغتيالات أصبحت حديثا روتينيا وعناوين للصفحات الأولى للجرائد المحلية باللغتين العربية والفرنسية، أخبار ما عادت تثير أحدا إلا أهالي الضحايا أو المقربين منهم، فقد الموت رهبته وقدسيته.

كلما فكرت في الذهاب بحثا عن مُومُو المؤذن وعازف العود سابقا إلا وقلت في نفسي: سيعود الرجل الأنيق الغامض الذي يشبه والدي هذا المساء أو على أبعد تقدير في مساء اليوم الموالي، فأتردد وأتخاذل وأشعر بخوف يستعمرني.

لا شيء.

ليال مرت وانتظرت وما ظهر الرجل الذي خطف عقلي الصغير ومع غيابه كنت أستمتع مطلع كل فجر بصوت مُومُو يرفع اسم الجلالة عاليا فأنهار وأضيع ضياعين.

obeikandl.com

6

البحث عن مُومُو

وأخيرا قررت أن ألاحق الشاب مُومُو كي أنسى الرجل الأنيق وبالتالي أقطع كل ما بقي من حبل للوصل بيني وبينه. عليَّ أن أسقطه أرضا من أعلى قمة المئذنة، من يرفع اسم الله الكريم والرسول العظيم عليه أن يرحم قلبا يذوب في ذكراه.

هذا الصباح، صباح يوم جمعة، بعد شرب القهوة وتدخين سيجارتين، نزلت إلى السوق الشعبي بحي المدينة الجديدة، كانت الشوارع غاصة بالناس، مع أنني حاولت أن ألبس ما يسترني، سروال دجينز فوقه جاكيته جلدية طويلة تصل إلى أسفل الركبتين إلا أن عيون الرجال الواقفين في كل ركن، الجالسين إلى طاولات المقاهي الوسخة والمنتشرة بفوضى على الرصيف وسط سحاب من ذباب أزرق وبعوض عنيد وملحاح عند أقدام المساجد ومطاعم الوجبات الخفيفة والدكاكين التي نبتت في كل مكان، كانوا يقشرونني

كالبرتقالة، يعرونني بأعين ذئاب نائمة بين أفخاذهم وهم ينتظرون ساعة صلاة الجمعة. دخلتُ محلا لبيع الألبسة الإسلامية، محلات كثرت هذه الأيام وراجت سلعتها المهربة من تركيا وسوريا، بنظرة ثعلب جائع يبحث عن فريسة، قابلني رجل ملتح يلعب بعمود خشن من السواك في فمه، يتمتم بين الحين والآخر ببعض الصلوات أو الآيات، كان جالسا في الركن على كرسي خشبي عالي القوائم خلف صندوق المحاسبة، دون أن ينبس بكلمة، أشار إلى أحد مساعديه بنشاشة الذباب المصنوعة من حلفاء، فأسرع على الفور في استقبالي شاب مخنث مكلف بالبيع، فَرَدَ أمامي دزينة من العباءات المختلفة أشكالها ومصادر صنعها ومادة نسيجها، فهناك العباءة الباكستانية والسعودية والأفغانية والمصرية والسورية والإيرانية، ألوان مختلفة وموديلات عجيبة وتسميات غريبة لم تكن لتخطر لي على بال، الدين رزق وتجارة لمن يعرف إلى ذلك سبيلا، لم تطل حيرتي، اشتريت واحدة باستشارة من الغلام المخنث الذي كانت أصابعها عامرة بالخواتم الذهبية والفضية، حتى دون أن أجهد نفسي في طلب تخفيض الثمن أو في المرور إلى غرفة القياس فبقدر ما استأنست لوجود الشاب المخنث الذي بدا وديعا تطلع منه رائحة عطر أنثوي حاد أخافتني عين الرجل الملتحي الجالس خلف صندوق المحاسبة، خفت أن يقبض علي في حجرة القياس ويلجني قبل صلاة الجمعة بساعة أو أقل من الساعة، دفعت ما طُلِبَ مني وانسحبت تحت نيران نظرات الملتحي الذي لم يتوقف عن اللعب بعود السواك الخشن في فمه، تخلصت من غوغاء السوق الشعبي بسرعة إذ صادفت، ومن حسن حظي، سيارة أجرة تسللت إليها طالبة

من السائق أن ينقذني من هذا الحشر، استجاب وقد رمقني بنظرة ثعلب جمعة جائع هو الآخر من خلال المرآة الارتدادية. عرّاني، لملمت جسدي وتكورت على نفسي في معطفي الجلدي الطويل وانسحبت قرب الباب هروبا من شرر عينيه المخيفتين اللاصقتين بالمرآة الارتدادية. بدأ يتحدث عن نفسه كالمذياع، لست أدري من كبس على زر التشغيل، قال لي ولم أكن منشغلة بصوته بقدر ما كنت خائفة من نظرات عينيه اللتين تفترسان جسدي: أنا أستاذ جامعي، حاصل على شهادة الماجستير من جامعة عين شمس بمصر أم الدنيا !! متخصص في الشعر الأندلسي، وبالأساس في شعر ابن قزمان، أحب شعر ابن هانئ وابن زيدون وابن حزم وأحب شعراء الأندلس إليّ هو ابن رشيق، (يا الله ها نحن عُدْنا إلى رشيق الوسيم ابن الزهرة الروخا سأحدثكم عنه لاحقا)، وشرع في قراءة بعض المطولات التي يحفظها غيبا، ولم يتوقف عند هذا الحد بل بدأ يشرح لي بعض صورها الشعرية الغريبة، مع أن نظراته الحادة كانت تخيفني إلا أن ما قرأه لي كان عكس ذلك تماما، فقد بدا سائقا شاعرا رومانسيا معتزا بالشعر العربي مؤمنا بأن العرب هم أهم وأكبر أمة أنتجت الشعر، قال وأعاد العبارة ثلاث مرات: للعرب القرآن والشعر الجاهلي وما جاء على قياسه في العصور الأدبية اللاحقة أما ما عدا ذلك فهراء في هراء.

من مكاني هذا في الخلف، ذكرني هذا السائق الجامعي بأستاذي في الأدب الجاهلي الذي كان معجبا بتأبط شرا وبشاعر يسمى الخبز-أرزي، كنت أريد أن أقول له ذلك إلا أنني لم أتفوه بكلمة واحدة، اكتفيت بالاستمتاع بهذه الصبيحة الشعرية التي

رحلت بي إلى أيام الجامعة التي نسيتها، أنساني إياها الرجل الثعبان الذي يظهر ويختفي.

بأدب عـال وبأسـلوب عربي فصيـح وكأنني أخاطب أسـتاذي في الجامعـة التي تركتها منـذ قرابة السـنتين وقد أنسـتني مدرجاتِها ومحاضراتِها أجـواءُ وزبائنُ مطعـم أرتور رامبو الحقيـر، طلبت منه أن ينزلني عند مدخل ساحة الأسـلحة Place d'armes هكذا يسميها الوهرانيون، سـاحة بتمثال بسـيط للأمير عبـد القادر ونافـورة كبيرة معطلة مواسيرها دائما تحرسـها تماثيل لحوريات من رخام منصوبة على أوبرا المدينة، تطل من أعلى سـطح العمـارة الكولونيالية ذات المعمار الهندسي الجميل والتي تعود إلى بداية القرن التاسع عشر، ركن الدكتور سـيارته يمينـا ثم ألقـى عليّ نظـرة لهفة أخيـرة، على الفور وحتى قبل أن يطلب مني ثمن الأجـرة، ناولته ورقة نقدية من فئة مائة دينـار ثم قفزت خارج السـيارة، وضعتُ فـي الزحام. كنت أشـعر، حتى دون أن ألتفت خلفي، بأنه يتلصـص عليّ، يمصمصني بعينيه، يلاحقني بين أمواج البشر، وارتحت حين ابتعدت، ولكني إذ التفت وجدته يتبعني بسيارته وبسرعة منخفضة تتناسب مع خطوي، مناديـا علي وقـد دفع برأسـه خـارج النافذة: يا آنسـة هـذا صرفك، والمـارة ينتبهـون ولا ينتبهـون لصراخـه، لـم أجب وانحـدرت في زقاق ضيق تجاه حي اللاكدوك حيث لا يمكن للسـيارات سـلوكه. فجأة سـقطت عليّ الفكرة الخبيثة التالية: تسـللت إلـى مدخل أول عمارة، بسرعة اسـتخرجت العباءة السوداء السـعودية أو الباكستانية مـن كيسـها البلاسـتيكي، لبسـتها علـى عجل فـوق سـروال دجين والجاكيت الجلدي، ثم خرجت إلى الشـارع، سرت بعض خطوات

وإذا بي أراه يمشي راجلا يتفرس المارة من النساء بحثا عني، تجاوزني دون أن يتعرف عليّ، كان يبدو قلقا كأنما ضيع شيئا ما في هذا الزحام الذي يشبه يوم الحشر، وسرت بأمان على الرصيف الآخر، غير بعيد منه. أعجبتني اللعبة هذه، إذ بدأت أنا التي تلاحقه وهو يبحث عني، كنت أضحك في داخلي.

فجأة هجم علي وجه صاحبي، وجه الرجل الذي يشبه والدي، شعرت وكأنني أخونه بهذه اللعبة مع هذا الدكتور المتخصص في الآداب الأندلسية، قلت في نفسي إن الرجل الذي يشبه والدي في مكان غير بعيد من هذا الرصيف، سرت قليلا وسط المارة التي تتحرك في هذه الرطوبة العالية دون هدف، فجأة وجدت نفسي قد نسيت لعبة الدكتور السائق وها أنذا أبحث عن الرجل الذي لا أعرف حتى اسمه، من بعيد رأيت شخصا بدا لي وكأنه هو، كأنه الرجل الذي لا أعرف اسمه والذي يشبه والدي والذي أسميته أبو بكر وهو ليس بأبي بكر، إنه هو هو، بقامته وطريقة مشيته وحركات يديه، أسرعت الخطو قليلا أكثر، ضيعته بين الرجال الذين بدوا لي حزينين ومنهارين وكأن كل واحد منهم يمشي في جنازته. ثم ما فتئت أن استعدته، من بعيد يبدو هو هو، ولكنه ليس هو هو. خاب ظني كثيرا حين اقتربت أكثر من الرجل الذي اعتقدته هو فإذا بي أجدني أمام الدكتور السائق الذي لا يزال يبحث عني بين المارة من النساء وأنا أسير خلفه ثم تجاوزته عمدا وما استطاع التعرف علي في هذا اللباس الإسلامي الذي أغرق نساءها، فكرت في أن أجرب الحديث إليه أن أسأله عن أي شيء، أسرعت الخطو وبطريقة عنيفة دفعته ليخلي طريقي، فقال لي إذ رآني مستعجلة: أضاع منك شيء

يـا الحاجة؟ قلـت لـه: ضيعت طفـلا فـي الزحـام !! كنـت أريد أن أقول له: ضيعت عقلي في الزحام !! ولكني لم أتجـرأ، لم ينتبه إلى أنني صيـده الضائع، تركنـي وانصرف ماشـيا هو الآخر فـي جنازته، والغريب أننـي كنت أتبعه، ثم فكـرت في أن أطلب منـه أن يمنحني ما تبقى من الصـرف، أي ما بقـي عنده من فـارق قيمة عداد سـيارة الأجرة، لكني لم أتجرأ خاصة وأن الشـارع بدأ يفرغ من المارة وقد اقتربت ساعة صلاة الظهر ليوم الجمعة المقدس.

حين دخلت الشـقة جاءتني الحاجة شـهيرا أم خوسي، نظرت إليّ وأنا في عباءتي الإسـلامية، ثـم قالت لي وهي تمعـن النظر في لباسي الغريب هذا: حتى أنت يا بنيتي، حتى أنت يا فاطي؟

الحقيقـة إن اسـمي المثبت علـى هويتـي الوطنية هـو فاطمة. وأبـي كان يحـب هـذا الاسـم كثيـرا، ولأنـه كان يحبـه فقـد أردت أن أحتفظ به له وحـده دون أن يلوثه أحـد وأنا التـي تعيش في دار الشياطين، لذا غيرت اسـمي منذ أن وصلت هذه المدينة، فاتخذت لي اسم: فاطي وهو تصغير لاسم فاطمة.

كيف جاء هذا الاسم؟ لست أدري، ربما إني قرأت ذلك في رواية من روايات إحسـان عبد القدوس، فأعجبت بشـخصية ما بهذا الاسـم. لسـت على يقين مـن كل هـذا. أو لربمـا لأن أخـي الأكبر والـذي كان يحبني حبا كنت أشك في بعض نواياه وحركاته كان يسمى فاطمي.

كان صاحبـي الـذي يشـبه والدي حيـن يناديني يقول لـي: يا فا، فيحذف «طـي» من اسـمي، فيعجبني ذلـك، ولعـل طريقة نطقه لاسمي هو الذي زادني تشبثا به.

فَا.

7

سماء المؤذن

اسـمي محند المغـراوي، فاطـي تناديـني مُومُو وأمـي تناديني موح أو محند.

.. الذي جعلني أقرر مغادرة دفء الأسـرة، أسـحب الباب من خلفي نهائيا وأجيء للإقامة بالحي الجامعي هو ذاك التفضيل الذي كان يُحظى به أخي الأصغر من قبل والدي.

كان أخي الـذي يصغرني بسـنتين وثلاثة شـهور يُعامَل معاملة الذكور أو الرجـال ولم يكن يتجاوز السـابعة عشـر مـن العمر، في المقابل كنـت أُعامَل كواحـدة من أخواتـي البنات. كانـت لي ثلاثة أخوات: زهور والطاووس ومريما أو مريم، لقد جعلني هذا التعامل اللامتكافئ واللامتوازن أشـك في رجولتي، وهو مـا جعلني أنتظر، وعلى قلـق، كل يـوم أن ينبت لي شـعر على وجنتي وأسـفل الإبط ومكان الشـاربين والعانـة، وحتى حيـن كان لـي الـذي انتظرته من

obeikandl.com

كميات الشعر، واصل أبي وبإصرار على ذات التعامل، فخطابه لم يتغير تجاهي، ولتأكيد رجولتي كنت أمارس العادة السرية يوميا، كنت أتفقد ذكورتي في الليل وعند القيلولة، لم تخني رجولتي يوما فقد كانت مستيقظة بين فخذي، في عضوي الجنسي المنتصب دوما، وقد دفعتني رغبة تأكيد ذكورتي في مواجهة تلك المعاملة الأنثوية لي من قبل والدي إلى احتضان أختي مريما وممارسة الجنس الخارجي معها، لم أكن أرغب في الجنس بقدر ما كنت أريد أن أثبت لأخواتي بأنني مختلف عنهن، مع ذلك كنت أجد متعة في ذلك وكذا كانت تشعر أختي وهي تستسلم لي، كلما كان والدي سامحه الله يعاملني كالأنثى، وعلى الرغم من مقاومتي لهذا الوضع، كنت أشعر بأن صوتي يتخنث يوما بعد يوم ويصبح رقيقا في حبالي الصوتية وأحس وكأن عضوي الجنسي أخذ يتقلص قليلا قليلا، فأبكي الليل بطوله وأطلب من أختي أن تلعب بقضيبي فتستجيب تضعه في دفء كفيها الناعمين الصغيرين وتبدأ في فركه وعصره من الأعلى حتى الخصيتين فأشعر بمتعة كبيرة تنتهي ككل ليلة بانفجار يبلل الإزار، وأنام لأصحو على صباح فيه صوت والدي يأمرني كما يأمر أخواتي البنات، حين أخذت أشعر بحبالي الصوتية تتأنث صُمْتُ عن الكلام، كنت لا أحدث أحدا سوى أختي مريما التي يستهويها اللعب الليلي بقضيبي الصلب، ولم تكن لتنتبه لهذا التغيير في غنتي الصوتية.

اسمي مُومُو، وهو اختصار لاسم محند، وقد سمتني فاطي هكذا، أما أمي فكانت تناديني باسم موح أو محند نسبة إلى أخيها التوأم، خالي محند الله يرحمه، خالي الذي شارك في حرب أكتوبر

67 ضد إسرائيل على جبهة سيناء، ذهب للحرب فرجع تاجرا ماهرا متخصصا في تجارة القطن والسكر والتبغ ما بين مدن بجاية وحلب وإسطنبول ودار السلام وفاس ووهران وأليكانط، وقد تعلم التركية في زمن قياسي وأتقن السواحلية والتماشيق وهي لغة الطوارق الأزواد، وقد مات في ظروف غريبة جدا. يُقال إن بقية قليلة من جسده وجدت مرمية بضواحي مقديشو بحي قصديري فقير يسمى تَبَلْبالة معروف بعاهراته الجميلات والشرسات ويكثر فيه تجار المخدرات وتجار الأسلحة الموجهة إلى جيش الشباب الإسلامي الذي يحارب النظام المركزي المفكك في مقديشو باسم الدين، ويروي البعض أن خالي هذا كان مهرب أسلحة للشباب الإسلامي ويكون قد سقط بين يدي عاهرات قبيلة تدعى قبيلة «سوبالا» ذات ليلة من لياليه الملاح، وتعرف هذه القبيلة بتقاليد غريبة إذ أن للمرأة الحق في أن تأكل ناكحها إذا لم يستطع إرواء شهيتها الأنثوية ويطفئ عطشها الجنسي كما ترغب وتشتهي، سبع مرات في الليلة، حيث يتم شواء جثة الرجل البارد على نار حطب يجلب من شجرة تسمى شجرة «الفحولة» وهي شجرة واحدة منها ذكرها والأنثى، تلقح نفسها بنفسها، ولا يؤكل من لحم الرجل المشوي إلا عضوه الجنسي وخصيتيه في حفل راقص، حيث يُتَناول مع كؤوس خمر يقطر خصيصا لهذه المناسبة من أرز بنغالي، ويُلقى بباقي الجثة لكلاب حي تَبَلْبالة القصديري التي بمجرد ما تشتم رائحة الشواء تتجمع بالعشرات أمام بيت نساء «سوبالا» المتعاونات مع حزب الشباب الإسلامي واللواتي يدفعن ضريبة تسمى ضريبة «اللذة» لهذا الحزب الديني، تبدأ الكلاب في

نباح غريب يطلق عليه أهل الحي «نباح الغريب»، ويبدو أن خالي كان عشاء للكلاب وعضوه الجنسي وخصيتيه «مازة» لمشروب الأرز البنغالي القوي الكحول.

مُومُو، كنت أستغرب هذا الاختصار لاسمي الذي كان يبعده أكثر فأكثر عن اسم خالي التاجر الفحل الذي انتهى شواء لعاهرات سوبالا الشرسات ليقربني أكثر وأكثر من اسم أختي مريما التي كان يعجبها اللعب بقضيبي وتستمتع بصراخي وحمحماتي حين لحظة القذف، لحظة الشبق التي تختلط فيها اللذة بالألم.

كلما تناسى الناس اسمي محند وأكثروا من مناداتي باسم مُوح الذي يذكرني باسم مريما كنت أسرع لأطل على وجهي في المرآة وأتحسس بعض الزغب النابت على الشوارب، لساعات أقف أمام المرآة الكبيرة التي ألصقها والدي قبالة المكان الذي يؤدي فيه صلاته منذ أزيد من أربعين سنة، وفوق ذات الزربية التي بمجرد الانتهاء من الركعة الأخيرة يعلقها في مسمار بجانب المرآة، كانت لوالدي عادة غريبة فهو لا يصلي إلا ناظرا إلى نفسه في المرآة، منذ أربعين سنة وهو ينظر إلى نفسه دون ملل، واقفا، ساجدا أو راكعا، وكأنما كان ينتظر أن يحط ملاك على أحد كتفيه أو هاتفا يجيئه في شكل غيمة تستوي تاجا على رأسه، كنت أقف غير بعيد أدقق النظر إلى والدي وهو يصلي فأجده في شبه حيرة من أمره وهو يطل على نفسه في المرآة التي كانت تمسحها أمي خمس مرات في اليوم تستعمل في ذلك سائلا خاصا يجلب خصيصا من الخارج خوفا عليها من الحول أو الغبش، وكأن أمي هي الأخرى كانت مقتنعة أن أمرا عجبا سيحدث، ذات صلاة، بين والدي ومرآته، وها هي

تنتظر منذ أربعين سنة ولم تفقد الأمل، ولم يحدث من ذلك شيء. أما أنا فكنت أعتقد أن والدي، وهو يقابل هذه المرآة في صلواته، كان يخاف من الشيخوخة، مما جعله يراقب جسده خمس مرات في اليوم، من طلوع الشمس حتى العشاء، ففي مثل هذه الحركات التأملية العميقة، حيث الروح في صفائها تلتقي بلآلئ الجسد، تُدرَك خيانة الجسد وتُكتَشَف بوادر سقوطه في الشيخوخة والعجز.

ينسحب والدي بعد أن يعلق زربية صلاته في مسمارها، يصفف شعر شواربه، يعطر إبطيه بماء غريب، أقترب أنا من صفاء المرآة، أطل على وجهي الكئيب، خمس مرات في اليوم أو أكثر، وفي كل مرة كنت أكتشف بأنني أُشْبِهُ أختي مريما التي تحب اللعب بقضيبي، أُشْبِهُهَا أكثر وأكثر، لمرات عديدة كانت أمي تعنفني إذ تصادفني قبالة المرآة أدقق النظر إلى وجهي وفي شكل صدري، تصرخ فيّ قائلة: مثُلُكَ مَثَلُ الفتيات العازبات لا تبتعد عن المرآة، أتريد أن تسكنها. يزيدني كلامها قلقا وخوفا فيطل علي وجه أختي أكثر فأكثر من عمق المرآة بدلا من وجهي، فأجري إلى الخارج وأدخل غرفة أخواتي وأتشمم رائحة مريما وأمارس العادة السرية وأصرخ لحظة الشبق وأراقب يوميا شعر العانة فأجد لونه قد أخذ يسود بعض الشيء، فأفرح.

بمجرد أن أسمع كلام أمي أقرر ألا أقف أمام المرآة مرة أخرى، وفي اليوم التالي أجدني ثانية أمامها وأجد وجه مريما أختي قبالتي بكل صفائه وأنوثته، لقد كانت جميلة وذكية، أذكى مني بكثير.

الشعور بالأنثى تبعني أيضا إلى الجامعة، لست أدري كيف

وجدتني محاطا بالطالبات، يلعبن معي ويفشين لي بأسرارهن وبأشيائهن دون تحفظ ويروين لي تفاصيل حكايات عِشْقِهن ويبكين بين يدي من إخفاق في الحب أو خيانة عشيق أو غيرة من أخرى خطفت لها مشروع حبيب العمر، كن يقمن بذلك دون حرج وكأنني «واحدة» منهن، لا يعرن ذكورتي أي انتباه ولم أشعر أن أبدت واحدة منهن خوفا على عذريتها مني، وما كان يغيظني أكثر ويثير جنوني هو أَنْ لا أحد من عشاق الطالبات كان يشك في أنثاه إذا ما رآها معي ولو في خلوة، كانت الواحدة منهن لا تتحرج في أن تطلب مني أن أرافقها إلى المرحاض، تدخل لقضاء حاجتها وأنتظرها عند الباب.

كنت أتعذب.

بدأت أشعر بأن صوتي يزداد تأنيثا أكثر فأكثر، وبدأت أكتشف وكأن صوت أختي مريما الذكية قد استوطن حبالي الصوتية نهائيا، كنت أتكلم فأسمع صوتها في فمي وفي حنجرتي. حين شعرت بهذا التحول بدأت أدخن، لم أحب التبغ في حياتي، ومع ذلك أدمنت التدخين علّي أقضي على صوت الأنثى في سحاب دخان السجائر الرخيصة، ولكني وجدت أن غالبية البنات الطالبات كن هن الأخريات يدخن مثلي وذات السجائر، فكانت الواحدة منهن لا تتردد في أخذ السيجارة من بين شفتي وسحب أنفاس طويلة منها، ثم تردها إلى فمي وكأن شيئا لم يكن، حاولت أن أغير نوعية الدخان وكلما غيرت تبغي وجدت من الطالبات من يفضلنه عن الأول.

كنت أتعذب.

كنا إذ ننظم حفلات أعياد ميلاد بعض الطلبة أو الطالبات، نقيم ذلك في قاعة نادي طلبة الحي الجامعي السانيا، وكنا نرقص بجنون حتى آخر الليل، حتى في مثل هذه اللحظات الجميلة الحرة الطليقة كنت أجدني أرقص رقص النساء، يضيع مني إيقاع رقص العلاوي الذي أحبه والذي فيه كثير من الفحولة لأجدني أرقص رقصة شبيهة برقصة أمي أو أختي مريما الذكية والتي كانت معروفة في القرية برقصها المتميز المجنون، كانت الطالبات الأمازيغيات يربطن فوطة أو منديلا على أردافهن ثم يبدأن في الرقص البربري، ثم يسحبنني إلى الحلبة كي أرقص، يربطن على ردفي منديلا وأبدأ في الرقص مثلهن، تماما بتمام، كنت أرى طلابا يرقصون وبنفس الطريقة لكن رقصهم كان فيه ذكورة، إذ كانت الطالبات لا تتجرأن على الاقتراب منهم، في حين كانت الواحدة بعد الأخرى تعانقنني وتصلحن من ربطة المنديل على ردفي دون حرج وتراقصنني دون تردد.

في المساء كنت أقف أمام المرآة، أضع كرسا أقف عليه، أنظر إلى ردفي وأشعر وكأنهما تحولا إلى ردفي فتاة في العشرين، فأرتجف وأخاف. وأمارس العادة السرية كي أقتل هذا الوسواس في رأسي، لكن دون جدوى، وأتذكر أختي مريما التي كانت تلعب بقضيبي حتى الشبق والإفراغ.

أحببت محمد عبد الوهاب كثيرا، وقررت أن أغني مثله، أن أقلد صوته الذي فيه من الرجولة الفائض وأكثر، ولكني إذ بدأت مع «يا جارة الوادي» أو «الهوى والشباب» وجدت في صوتي شيئا من فيروز وأم كلثوم ونجاة الصغيرة يسكن حبالي الصوتية، من

يومها لا أحب أم كلثوم ولا نجاة الصغيرة ولا فيروز، تركت الغناء وقلت سأتبع محمد عبد الوهاب في العود دون صوت، بسرعة وإتقان تعلمت العزف على آلة العود.

العود آلة شرقية ذكورية.

تمنيت أن تنبت لي صلعة كما الرجال، صلعة كالصحراء في رأسي، وأضع يدي عليها وأفكر في هموم الدنيا والدين، ولكن للأسف كان شعري كل يوم يزداد جمالا يضاهي جمال سالف بعض الطالبات، كن يتسابقن لتسريحه، تخرج الواحدة مشطها من حقيبتها اليدوية أو من محفظتها، ثم، وحتى دون أن تطلب موافقتي، تبدأ في تصفيف شعري، يحدث هذا وسط مدرج الدرس خفية عن أستاذ الحضارة الإسلامية أو أستاذ تاريخ الخلفاء الراشدين يحدث هذا أيضا في الساحة أو في نادي الطلبة.

تمنيت، ولو لمرة واحدة أن أثير غيرة الطلاب الذين لا تتردد عشيقاتهم في مغازلتي علنا وقدامهم، لا شيء من ذلك كان يحرك فيهم الرجولة، إذ لا رجولة فيَّ تخيفهم أو تهدد شرفهم، وكأن وجودي ليس وجودا، وذاك ما كان يعقد الأمر ويثير أكثر وأكثر غضبي وعزلتي ورغبتي في البحث عن شيء يقيني هذا الوسواس المرعب.

مرات كثيرة فكرت في الذهاب إلى الدين، أن أكون مؤذنا أو إماما، فالإمامة يمكنها أن تمنحني الرجولة المفقودة دون أن يناقشني العامة الدهماء.

فكرة جيدة.

8

آلة العود

مرات أتساءل: أأحب فَاطي أم أن علاقتي بها مجرد علاقة عابرة لا تختلف عن تلك التي تربطني بالعشرات من الطالبات المنتميات إلى مختلف الأقسام؟ صحيح أن فَا كانت لا تفارقني، فهي في ذلك تختلف عن الأخريات، إنها كظلي الثاني، لكننا حين نخلو لبعضنا البعض حيث أسحبها إلى قاعة سينما الكوليزي لمشاهدة فيلم إيطالي، وفي ظلمة القاعة تقبلني فأحس ببرودة قاتلة في شفتيها، ثلج، أقبض على يديها فلا أشعر بارتجافة العاشقة، تبرد فرائصي أنا الآخر، كانت عينها على الشاشة الكبيرة أكثر وأذنها على موسيقى الفيلم، صحيح أن للأفلام الإيطالية موسيقى هائلة، مثلها كنت أحب السينما الإيطالية، إلا أنني بدأت أشك في كل هذا التعلق بالسينما، أتصور أنها ساقطة في عشق الممثل الإيطالي: روبان رينوسي، إنها المرة الرابعة بل الخامسة، في ظرف أسبوع

obeikandl.com

واحد، التي نحضر فيها عرض هذا الفيلم الرومانسي «ألم الحب» (Le mal d'aimer)، كلما خرجنا من قاعة السينما وقادتنا أقدامنا، وبشكل آلي، إلى مقهى «البدر» في شارع العربي بن مهيدي، واتخذنا لنا مكانا في الطابق الأول المطل على حركة المارة التي تزداد كثافة بعد الساعة الرابعة مساء ومعها ترتفع زمارات السيارات والتحرشات بالنساء، في ذلك الركن المنعزل الرومانسي، تبدأ فاطي، وكما في المرات السابقة، في التعليق على الفيلم وعلى الممثل المثير روبان رينوسي، أسكت، لا أعقب وكأني لم أحضر الفيلم أصلا، أقول في نفسي: الحب بين امرأة ورجل لا يكون على هذه الطريقة، يحتاج إلى حرارة وجمر وتكسير، أشرب قهوتي وأنا أفكر في الانفصال عنها، وفي اليوم التالي أنسى الفيلم وتعليقاتها وأجدني معلقا بها كحقيبة يد ثانية.

نتحدث كأن شيئا لم يحدث.

حين قررتُ تعلم العزف على العود، اخترت هذه آلة لأنها ذكورية بامتياز، لكني وبمجرد أن جلست، لأول مرة، بين يدي أستاذ الموسيقى عبد الله الرحموني، نظر إليّ وإلى أصابعي ثم قال لي وبطريقة وثقة: أصابعك صنعت بشكلها الأنثوي هذا إما للعزف على البيانو أو على الكمنجة، على الفور فكرت أن أغادر الفصل لكني صابرت وقاومت هذه الصدمة، وفي الوقت نفسه سكنني شعور التحدي، فقررت أن أكون ماهرا في العزف على هذه الآلة، وما أثار دهشة أستاذ الموسيقى هو هذا الإصرار الذي اكتشفه فيّ، إذ بمرور الأيام كنت أثير انتباهه بعزفي المتميز، ومع ذلك كان لا يتوقف عن تعليقه: لو أنك يا بني اخترت لك آلة أخرى، كالكمنجة

أو البيانو لكانت النتيجة أفضل من هذا بكثير، جيد، جيد.

أصبحت آلة العود لا تفارقني، مع أنني كنت كلما عزفت عليها ونظرت إلى أصابعي تذكرت قول أستاذ الموسيقى: أصابعك أنثوية... أرتبك، أدير رأسي وأغرس نظري في كتفي وأواصل العزف بإتقان، كنت أشعر بأن أصابعي مفصولة عن جسدي، كأنها لإنسان آخر يعيش معي في جسدي النحيف هذا، وكلما شعرت بأصابعي مفصولة عني كان العزف يزداد حرية وإبداعا وفتنة.

في مناسبات كثيرة، أعياد ميلاد الطالبات والطلاب أو ليلة الإعلان عن نتائج امتحانات نهاية السنة الجامعية، مهما كانت، بالفوز أو بالسقوط، كنا نجتمع في نادي كلية الآداب واللغات أو في شقة مؤجرة من قبل أحد الطلبة ميسوري الحال، أعزف لهم وفي مثل هذه اللقاءات اكتشفت صوت فَاطي وأثارتني موهبتها في الغناء من خلال أدائها وصلات من أغاني فيروز وورينات الوهرانية، لفاطي صوت أخّاذ وأذن موسيقية عالية وحساسة وكانت ترقص كفراشة على أنغام الشرق والغرب وعلى إيقاع الفلكلور البلدي وتحفظ كثيرا من شعر نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة وكان أحب الشعراء إليها هو جرير، نعم جرير !!

حين اكتشفت إبداعها هذا تيقنت أنها ليست لي، إنها للفن، إنها للجميع، وبدأت علاقتي بها تأخذ طابع التعاون الموسيقي، وفي المقابل بدأت تخرج قليلا قليلا وبحزن من قلبي، لم تكن تخرج كنت أُخْرِجُها منه بصعوبة، وكنت أتألم لذلك وكنت أراها كئيبة لطريقة تعاملي معها، لكنني كنت متيقنا لو أنني غامرت معها حتى آخر قصة حبنا سأهزم في نهاية الطريق أمام رجل آخر سيجيئ

ذات يوم يشبه ذاك الممثل الإيطالي الذي يثير غيرتي ليأخذها من بين ذراعي، كنت واثقا بأن معاركي مع الرجال خاسرة، مع أنني لم أخضها، لأن هناك شيئا ما مكسورا بداخلي، فُحولتي المهزوزة وأصابعي ذات الشكل الأنثوي، وراء كل مأساتي يقف أبي هو الذي أَنَّثَنِي وأَخْصَاني على الرغم من فحولتي ومن عادتي السرية كل ليلة وهو الذي دفعني إلى فعل ما فعلته مع أختي مريما الذكية والجميلة.

أول بيرة شربتها في حياتي، كان ذلك ذات سهرة في شقة خاصة لأحد أصدقائنا من الطلاب ميسوري الحال والذي كان يملك سيارة من نوع زاسطافا 128، شُرْب البيرة الأولى، القنينة الأولى في الحياة، حدثٌ وأي حدث، حدثٌ لا يُنسى، إن الإحساس المرافق لهذا الحال يشبه ذاك الذي يطلع من رحيق القبلة الأولى التي نطبعها على شفتي أول فتاة في الحياة، في مسارات العشق وسُلَّم فقه النساء، زلزال، أو ذلك الشعور الذي ينتاب الواحد منا وهو يركب لأول مرة الطائرة، ضغط وخوف ولذة وفقدان الوزن والاتزان، لم أكن أتصور أن طعم البيرة مر، بعد الذي سمعته عنها من مديح وثناء وقرأت عنها من شعر عربي وأجنبي كثير، لماذا أتخيل الأشياء الجميلة دائما بطعم حلو كعسل النحل البلدي أو السكر أو الشوكولاتة أو المربى، كنت دائما أتصور طعم البيرة حلوا أكثر من حلاوة ليمونادة حمود بوعلام ذات الرغوة الحادة المنعشة، حتى الآن أحب هذه المشروب الغازي الشعبي وأفضله على مشروب الكوكا كولا، في هذه الشقة ومع أول جرعة بيرة تعرفت على أحد الضيوف من غير الجامعيين،

في تلك الليلة عزفت بجنون وإبداع، وغنت فَاطي ببلاغة فنية مدهشة، كانت في كل أناقتها البسيطة والعفوية مما جعلها تسرق لب السيد الحاضر معنا، كان لا يشرب، يعدل من ربطة عنقه بين الحين والآخر، هي عادة إذ أن العقدة كانت على أحسن ما يرام، راقصها وراقصته مما أثار فيّ غيرة لأول مرة ولأول مرة أكتشف بأنني أحب فَاطي، لست متأكدا من ذلك تماما.

لم يكن الرجل الأنيق يحسن الرقص كما يجب، كان يحرك جسمه ورجليه في فوضى دون انسجام أو تناسق، أو بالأحرى في شبه ارتباك مع إيقاع الموسيقى الكلاسيكية، حركاته أفسدت على فَاطي رقصها العالي، لفاطي أذن موسيقية متميزة، أذن تسمع هسيس قطرات الندى وتميزه. في آخر السهرة وبدعوة منه اتفق الجميع على أن نلتقي الأسبوع الموالي على عشاء في مطعم أرتور رامبو

بقدر ما سعدت بذاك اللقاء فقد أقلقني الرجل صاحب الدعوة!!

ما عادت الأيام سَلِسَة ولا عادية فقد أصابني ما يشبه الكآبة العميقة، لست أدري كيف ولا متى حصل ذلك؟ ومن جراء هذا الحال قاطعت جميع الدروس التطبيقية والمحاضرات الجامعية، واعتزلت، انسحبت إلى غرفتي بالمدينة الجامعية أقرأ الروايات الكلاسيكية الرومانسية، وبين هذا الكم من الروايات العربية والمترجمة، بالصدفة سقطتُ بين يدي كتاب الله، ولأول مرة، فكرت في قراءة القرآن الكريم كاملا على طريقتي الخاصة، أقرأه لي، أستمع إليه في هذه الغرفة الضيقة التي أتقاسمها مع طالب

يدرس الرياضيات ويحب كرة القدم بهوس ويتابع أخبار لاعبي فريق بارشلونا الإسباني بدقة وقد غطى الجدران بصورهم، لست أدري كيف جرفتني هذه الرغبة العارمة إلى كتاب الله، ربما تكفيرا عن البيرة الأولى، أخذت نسخة المصحف الشريف، بعد أن فركت أسناني مرتين بالصابون كي أتلف ما قد بدا لي بقايا رائحة البيرة، هي النسخة التي وضعتها لي أمي بين ملابسي، قبل أن أغادر البيت هروبا من عيون والدي الذي كان يفضل أخي الأصغر عليّ، تلك عادة، إذ بمجرد أن يغادر أحدنا البيت لسفر ما إلا وتجعل له أمي نسخة من المصحف بين أغراضه، فتحت على سورة الرحمن وبدأت القراءة بصوت خافت، أعجبني التكرار الموجود في السورة، فكرت أن أقرأها على إيقاع العود، لكنني استغفرت الرحمن الرحيم وطويت كتاب الله وشكرت والدتي أنها وضعته ها هنا ليرافقني في مثل هذه الساعة، لم أفهم شيئا كثيرا من السورة إنما أثارت فيّ راحة واسترخاء ذهنيين.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة ليلا وقد سقط الظلام الدامس فجأة على هذا الحي الشعبي المثير للخوف، رطوبة ناعمة غير ثقيلة أشعر بها ونحن ننزل هذا الزقاق المسمى «زقاق المعدومين» « Ruelle des condamnés »، لم نتعب كثيرا في الوصول إلى المطعم، مطعم صغير يسمى باسم الشاعر الفرنسي الكبير أرتور رامبو، دون يافطة على الواجهة، وكأنه ليس بحاجة إلى مثل ذلك، الجميع يعرفه ويستدل على مكانه دون عناء، على كل أنا لم أقرأ لهذا الشاعر، للاعتراف إنني لم أقرأ له ولو بيتا شعريا واحدا، سمعت بعض أصدقاء من طلبة الآداب الفرنسية يمدحون ويشيدون

بقصيدة له اسمها « يوغرطة»، المطعم عبارة عن محل صغير بمدخل عمارة قديمة كولونيالية تعود هندستها إلى القرن التاسع عشر، بشبابيك مهترئة تثير كثيرا من الحنين لدى المارة والساكنة، لكنها نظيفة، على الأقل كما ما يبدو من مدخلها.

حين اقتحمنا المكان، واجهنا جمع من زبائن يعرف بعضهم بعضا، الكل يتبادل التحيات مع الكل، لا غريب في المكان، يدفع البعض عوضا عن البعض الآخر، سخاء البارات وكرم الشاربين، شعرية في الحديث واحترام الكل للكل، في مطعم أرتور رامبو يجلس الناس للأكل ولشرب البيرة والويسكي والنبيذ والريكار وأشياء أخرى، اصطحبت معي آلة العود التي لم تكن لتفارقني، إذ في أي مجلس حين لا أجد أين أضع لساني أو قدمي ولا أين أدس أناملي الأنثوية وحين لا أعرف موضوعا أفتحه للحديث مع من حولي أخرج الريشة وأطفئ كل حديث وكل نقاش مهما كان سياسيا أو جنسيا أو اجتماعيا وأشرع في العزف، أنا لا أحب تناول الموضوعات السياسية على مائدة الأكل ولقاء الخلان، لا أحسن الحديث في السياسة، ثقافتي ضعيفة ولساني جاف.

استقبلنا صاحب المحل بكثير من الترحيب والبشاشة بعد أن قدم لنا نفسه بلهجة وهرانية: اسمي خوسي. ثم قادنا في فوضى المحل إلى طاولة في الركن حيث يمكن مراقبة كل ما يجري، لم يتأخر صاحبنا ذو الربطة المرسوم عليها أنواع من الفواكه الاستوائية، وصل في الوقت نفسه مع صديقنا الطالب الميسور، جلسنا، ساد الصمت قليلا، ثم ما فتئ أن كسره خوسي الذي جاءنا بصحنين من الفول السوداني واللوز وإبريق ماء، رميت عيني

من هذا المكان الاستراتيجي الذي جلست فيه، فإذا بي أعد نساء المحل الموزعات على الطاولات، كان عددهن خمسة، بعد ست دقائق زاد العدد واحدة، رأيتها قادمة من المرحاض، امرأة في الثلاثين مبتسمة وواثقة في جمالها، تمشي بين الطاولات وكأنها تمثل في فيلم أو تنظر إلى نفسها في مرآة، ثم رأيت سابعة، امرأة في الستينات، أنيقة ومبتسمة، على عجل فُتِحت دفة الباب المردودة على النصف، ثم أطلت وكأنها تنظر إلينا من خلف ستارة مسرح، رمت بنظرها ذات اليمين ثم ذات اليسار، أشارت لخوسي بيد حيث المعصم محوط بأساور مختلفة الأشكال والألوان والمادة، من ذهب وفضة، كانت تبدو وكأنها ضيعت أول موعد عشق في حياتها أو كأنها تأخرت على موعد إقلاع القطار الأخير.

جاء النادل، وضعتُ آلة العود جانبا، غير بعيد من موطئ قدمي، عند قدم الطاولة العتيقة، محررا بذلك الممر إلى المرحاض الموجود في أقصى الطرف الآخر، كانت شهيرا تحمل بين أصابعها قلم رصاص منجور بدقة وكناشا صغير الحجم، نظرت إلى فاطي، ثم قالت: ماذا تشربون، مشروبكم الليلة على حساب السنيور خوسي صاحب المحل؟ سكت الجميع، وتكلم على الفور صاحب الدعوة: نبدأ ببيرات باردة، من طرف الطاولة قالت فاطي: أنا لا أشرب البيرة، إنها تنفخ البطن، أريد كأس ويسكي خفيف جدا جدا.

سجلت شهيرا الطلبات دون أن ترفع عينيها من على عنق فاطي، مما جعلني أنظر إلى هذا العنق وكأنني لم أشاهده من قبل لأتأكد من أنه فعلا طويل كعنق غزالة برية، عنق مثير وشهي

للعض. كنت أراقب عيني الجالسين على طاولة الزوايا والأطراف، لكم هم مؤدبون هؤلاء السكارى الجالسون خلف كؤوس نبيذهم أو قناني بيراتهم أو مشروبات أخرى، أصوات السيدات ترتفع قليلا، تكسر بعضا من انسجام المكان، مرة أخرى أتصفح زوايا المحل ووجوه الزبائن، بدت لي النساء على حافة الكؤوس جميلات أكثر من الواقع، النبيذ يزيد المرأة بهاء وقدرة على الإغراء.

حكى صاحب الدعوة نكتة سياسية، شخصيا لا يعجبني الحديث في السياسة في مثل هذه الأماكن كثيرة الدخان وغريبة الوجوه. جاءت شهيرا ببعض الصحون: صحن حلزون، وآخر للسردين، صحن فستق سوداني وآخر للوز، وصحن سلاطة خضراء وزيتون أسود ومرمدة سجائر زجاجية نظيفة.

غير صاحب المحل الأسطوانة، صعد صوت رينات الوهرانية بحشرجته المتميزة، تعجبني هذه المغنية اليهودية التي لم تغير من لغتها العربية التي أحبتها وولدت فيها.

بدا منظر الطاولة العتيقة التي نجلس إليها جميلا بهذه الصحون الخزفية البيضاء والتي طبعت عليها رسوم من صحراء تيمقاد وبعضها الآخر لآلهة يونانية ووحوش خرافية، أشكال غريبة، منذ الصغر أنا لا أحب السردين مشويا كان أو مقليا، في المقابل أجد في الفستق الحلبي والحلزون شهية لا تضاهى ورغبة لا تقاوم.

جو المطعم حميمي، يخاطب خوسي جميع الزبائن بأسمائهم الصغيرة، فجأة سكت الجميع، وصعد خوسي إلى المنصة الصغيرة التي لا تتعدى مساحتها المترين المربعين، وقف مرتبكا قليلا، نقر

أربعة نقرات هادئة بفرشاة إينوكس على أطراف كأس نبيذ فارغ، ثم شرع في قراءة شعر بالفرنسية وبلكنة إسبانية جميلة إكزوتيكية، قال لنا صاحب الدعوة دون أن نطلب تفسيرا للذي يجري: إنها عادة يومية، إذ كل مساء تتم قراءة بعض مقطوعات من أشعار أرتور رامبو في ذكر يوغرطة والأمير عبد القادر، وهذا تقليد مستمر منذ أن فُتح هذا المطعم قبل أكثر من سبعين سنة، إذ كان جد خوسي الذي جاء وهران هاربا من الآلة القمعية لنظام الديكتاتور فرانكو، أول من أرسى هذا التقليد الشعري، فقد كان هو نفسه شاعرا معروفا حاز على عدة جوائز وقد غنى له كثير من الفنانين الملتزمين الكبار قصائد في الحب والحرية والنساء والنبيذ، كان هذا الجد معجبا برامبو وفرلين وبودلير، مولعا بالشعر، يحفظ عن ظهر قلب ديوان «أزهار الشر»، بمجرد أن أنهى القراءة، صفق الحاضرون، رفع الجميع نخب الشعر والشعراء، ثم نخبا آخر على روح إمبرتو جد خوسي.

أعجبتني قراءة خوسي للشعر، وجدت فيها ما يحرك الموسيقى على أطراف أناملي وفي سريان دمي، تلمست أوتار العود دون أن أرفعه من عند قدم الطاولة، وكأنما كانت تطلب مني أن أدغدغها، أكلت حلزونا كان مرقه حارا مثيرا، وشربت دفعة واحدة نصف قنية البيرة الباردة، شعرت بأسراب من النمل أو ما يشبه ذلك يصعد جسدي، من أخمص قدمي إلى قمة رأسي، وتذكرت مصحف والدتي الملفوف في فوطة بيضاء والموضوع في الحقيبة بين ملابسي النظيفة، نظرت إلى فاطي، كانت شبه غائبة على وجهها بعض التعب، ملامحها ذكرتني فجأة بأختي مريما،

ارتجف جسدي، شربت ما تبقى في قاع القنينة وتناولت بعض حبات الكاوكاو الساخن والمحمص أكثر من اللازم، على وشك الاحتراق، كان الكاوكاو مغطى بحبيبات ملح خشنة، مذاقه مع مرارة طعم البيرة كان رائعا وشهيا. تعجبني مصمصة حبات الفول السوداني قبل قرقشته كما تثيرني لذة مصمصة نواة حبات الزيتون الأسود قبل رميها.

طلب مني صاحب الدعوة أن أعزف قليلا لزبائن البار الذين غالبيتهم من المثقفين والإطارات وبعض قدامى النقابة، تناولت عودي، دوزنته قليلا، هربت من منظر أصابعي التي تشبه أصابع أنثى، أدرت رأسي وتذكرت أستاذ الموسيقى الذي أراد الاعتداء علي جنسيا، طاردت الذكرى وبدأت العزف، سكت الزبائن فجأة، لم تتمالك فاطي، لم تستطع السيطرة على نفسها وهي التي لها صوت من زبرجد، إذ انطلقت في الغناء حتى قبل أن يُطلَب منها، زاد الصمت، وارتفعت الأنخاب بين وصلة وأخرى.

والرجل الأنيق لم يرفع عينيه من على جسد فاطي التي يبدو أنها غرقت فجأة في صوت رينات الوهرانية، كانت تؤدي أغانيها بشعرية عالية، بحلولية واندماج روحي متميز، وهو ما زاد الرجل الأنيق تعلقا بفاطي، وكأنها أعادت له بعض بستان من زمن مضى، أنا الآخر أدرك الآن كم هو جميل صوت فاطي، إنها تغني بحب وشغف وغرق وذوبان في اللحن.

نخب فوق نخب فوق آخر، والليل انسحب نحو ضوء الفجر، وبدأت المدينة تتحرك بكثير من الكسل والخوف والتردد والغموض، وحين تستيقظ المدينة في الجهة الأخرى من الضوء

ينام حي اللاكدوك، تطفئ أضواء غرف ويرتفع ضوء النهار وترتمي نساؤه على الأسرة لبعض الوقت في انتظار المساء.

بقدر ما أعجبني جو المكان، أخافتني نظرات الرجل الأنيق الذي لم يتردد في أن يقوم من كرسيه، وعلى الطريقة الإيطالية، ليقبل ظاهر كفي فاطي ثلاث مرات وينحني أمامها كممثل مسرحي أنهى أداء دوره بامتياز.

هي بداية الهزيمة أو النكسة.

obeikandl.com

9

بداية حكاية الشبيه

بإلحاح من خوسي صاحب المحل، تكررت زيارتنا لهذا المطعم، وأصبحنا من زبائنه المعروفين، وككل مساء كنت أشرب بعض بيرات وأعزف دون أن أنظر إلى أصابعي الأنثوية الشكل وترافقني فاطي بالغناء، أمسية بعد أخرى، كان صوتها يزداد جمالا وكأنما خلقت للغناء لا لمقاعد الجامعة والحياة الضاجة في الخارج.

هذا المساء، وخوفا من التنقل الليلي في سيارات أجرة مشبوهة وقد أخذت أخبار الاعتداءات تشكل الصفحات الأولى للجرائد، عرض خوسي على فاطي إمكانية أن تقيم في غرفة مع أمه التي تعيش وحيدة في شقة كبيرة على بعض مئات أمتار من المطعم، في البداية ترددت ثم وافقت لأن ذلك سيحررها من عيون مراقبي الأحياء الجامعية ومن ميليشيات مناضلي الحزب الديني.

obeikandl.com

وغادرت فاطي غرفتها في الحي الجامعي، حزنت كثيرا إذ رأيتها ترزم عفشها في سيارة نقل صغيرة، مثلي كان بقية الطلاب والطالبات في حالة من التوتر والكآبة.

واختفت فاطي، بعد فترة قصيرة قالت لي ونحن نغادر مطعم أرتور رامبو هي إلى غرفتها مع أم خوسي وأنا إلى الحي الجامعي: قررت أن أترك الجامعة، أريد أن أصبح مغنية، فنانة. فوجئت بكلامها واندهشت لشجاعتها وقرارها هذا، وتأكدت من أن فاطي فتاة شجاعة تتمتع بشخصية قوية محنكة تتفوق على شخصيتي المهزوزة والمهزومة، جرأتها لا تتناسب ولا تتوافق مع ترددي وخجلي وخوفي الذي غرسه فيَّ والدي منذ الطفولة، أنا شاب معطوب الداخل.

وإذ قررت فاطي ذلك، في المقابل، قررت أنا بانهزامية كبيرة أن أتخلى عن دور عازف العود في المطعم وأعود إلى محاضرات الجامعة لأشبَعَ كلاما عن فن المدح وفن الهجاء والرثاء في التاريخ.

بعد مدة قصيرة على غيابها شعرت بالسأم والملل، ما عادت الطالبات تحطنني بذلك الوجود الدافئ الحنون، ذات يوم ربيعي بارد، كان الوقت عصرا، وقد شعرت بكآبة تلفني، أضحى الفراغ كبيرا، لا يوجد حولي سوى ما يشبه العواء، لست أدري، ودون سابق تفكير، وجدتُني أرتجف بين يدي إمام مسجد الحي الجامعي، وهو يقول لي: – التوبة من الدين. قلت: – نعم.

ومن يومها توضأت، لأول مرة في حياتي أتوضأ، ثم أصبحت لا أغادر مسجد الحي الجامعي، أقرأ القرآن وأنظف الأرضية مساء

كل خميس وأنفض الزرابي وأغسل المراحيض، لم تمض سوى بضعة أيام حتى اقترح على إمام المسجد أن أتولى مهمة المؤذن، كان على علم بصوتي المتميز وهو الذي قضى سنتين كاملتين معي في الكلية نفسها.

وجدتُني مؤذن مسجد المدينة الجامعية.

ليسامحني ربي، فهو الغفور الرحيم، كنت أرفع صوتي، خمس مرات في اليوم، مناديا بخشوع للصلاة وأنا أفكر في صوت فاطي وفي عنقها وفي ذاك الرجل الأنيق الذي جعلني أغادر الحلبة مهزوما أجر أذيال خيبة مُرَّة، العاشق الخائن كالفارس الخائن، العشق معركة، أنبل المعارك لأنبل الفرسان، كنت أفكر فيها أكثر من تفكيري في الله عز وجل وفي ورسوله الأعظم. الأنثى مثل فاطي فتنة تصلك نارها حتى وأنت في المحراب بين يدي الله، كان وجهها الجميل بعلامات التعب والحزن المرسومتين عليه باستمرار يحاصرني أينما نزلت حتى وأنا بين يدي الله، وفي كل حالاتي النفسية والإيمانية.

هروبا من جلسات بعض الأصدقاء الليلية ومن أسئلتهم المتكررة عن اختفاء فاطي الذي خلَّف مواتا بين الطلاب والطالبات في الحي الجامعي، لم أعد أغادر الحي الجامعي، ولمرات كثيرة كنت أفضل أن أبيت في المسجد، أستيقظ عند منتصف الليل، فأبكي غياب فاطي، وقبل أن أرفع آذان الفجر، أتوضأ، أستغفر الله كثيرا، وأقرأ بعضا من كتابه الحكيم. أعتكف.

ذِكْرُها كان يثير لدى الجميع الحسرة والشوق، بغيابها بدأت تتمزق شلة الأصدقاء.

اندلعت اليوم حرب سيوف شرسة بين مجموعة من الطلبة اليساريين ومجموعة أخرى من الإسلاميين، وكان هناك جرحى من صفوف الإسلاميين تم نقل بعضهم لتلقي العلاج الاستعجالي في مسجد المدينة الجامعية، حين رأيت الدم مراقا فوق زربية الصلاة، تذكرت أول قنينة بيرة، أمام منظر العنف فكرت في الهروب من المكان و العودة إلى العزف على العود، فجأة شدني حنين غريب إلى آلة العود.

من حولي، يزداد التوتر والعنف درجة ودرجة، يوما بعد آخر، يعم الجامعة، لا حديث إلا الحديث عن دخول تنظيم «جماعة التكفير والهجرة» الحرم الجامعي.

قررت أن أغادر الجامعة، وكلما فكرت في ذلك بجد، أجدني خائفا من إمكانية متابعة هؤلاء المتعصبين لي، لن يغفروا لي هذا المسار، إذا ما هم علموا بأنني تركت المسجد وعدت للموسيقى التي هي رجس من عمل الشيطان، وأكثر من ذلك إذا ما علموا بأنني أمارسها في مطعم- بار يحمل اسم شيطان الشعر: أرتور رامبو.

رفعت آذان الفجر، كان الآذان الأخير، وقررت أن أغادر الحي الجامعي ومسجده، أن أبحث لي، قبل أن أعود إلى الموسيقى، عن مسجد آخر أو مهنة أخرى أسد بها رمقي وأختفي من خلالها من هذا العنف.

حنين عارم هزني، غزاني وجه فاطي الملائكي، واستوطنني صوتها العذب، ولكن الجرأة كانت تنقصني، ذاك المساء، أول مساء بعد أن تركت مسجد المدينة الجامعية، قررت أن أذهب

في إثرها، وصلت حتى عتبة المطعم، شعرت بها خلف الباب، ثم وليت هاربا، خفت من غريمي، ذاك الرجل الأنيق الذي يشبه الثعبان الذي يظهر ويختفي، خفت من هزيمتي أمامه، دون شك ففاطي أصبحت له. نظرت إلى أصابعي، وجدتها أنثوية أكثر مما كانت عليه، تذكرت والدي الذي كان يفضل أخي الأصغر عليّ، وتذكرت أستاذ الموسيقى الذي حاول الاعتداء عليّ جنسيا، ثم تراجعت وقد شعرت بعرق يسيل عند منبت شعر الرأس، لم أطرق باب المطعم لم أكن شجاعا كي أمد يدي ليسقط نظري على أصابعي، سمعت صوتها من على خطوتين يصعد عسلا ونارا، أو هكذا تهيأ لي.

شعرت برغبة في أن أصرخ عاليا وسط هذا الليل الأخرس: فاطي، فاطي، فاطي.... لكني حجمت عن ذلك إذ لمحت أشباحا غريبة تعبر الزقاق شبه المظلم في تستر أو سرية وكأنما تخفي شيئا أو هي ملاحقة من قبل مجموعة أو جهة ما.

استقر بي ممشاي الليلي في مسجد عائلي صغير لا يبعد سوى بزقاقين عن الزنقة التي يوجد بها المطعم الذي منه يطلع كل مساء صوت فاطي. حين حدثت القائم على المسجد وعرضت عليه خدمتي كمؤذن، نظر إليّ ثم اختفى قليلا، ربما ليستشير في الأمر غيره ممن هو أكبر منه أهمية وأصلح قرارا، بعد لحظات عاد إليّ، أخذني من يدي وأدخلني على رجل مسن، فاقد البصر، قبلته على رأسه ثلاث مرات، ثم مترددا عرضت عليه رغبتي في تولي مهمة مؤذن المسجد والقيم عليه، خافض الرأس استمع إليّ بخشوع ثم قال: هذا صوت مؤذن، ثم حدثني عن الفنان صباح

فخري الذي قال عنه إنـه كان مؤذنا في جامع حلـب الكبير قبل أن يصبح مغنيا موشـحات من الصنف الرفيع، لم أعلق، كنت أفكر في ليالـيَّ الماضيات التي قضيتها فـي مطعم أرتور رامبـو والذي يوجد على مرمى حجر من بيت الله هذا، عازفا على آلة العود الدمشقي.

قال الرجل الضرير: الآذان في الإسلام فن يا بني، هو فن قبل أن يكون إيمانا فقـط، قالها، وقد لمس في صوتـي بعض الفن، مرر يده على أصابعي ثـم واصل تعليقـه: أصابعك ناعمة يـا بني وكأني بك ولدت وتربيت في القطيفة أو في العزف على العود.

بسـرعة سـحبت يدي من يـده، انزعجـت لملاحظتـه المتعلقة بنعومة أصابعي وقد ذكرني في حركاته وطريقة لمسـه ليدي بأسـتاذ الموسيقى السيد عبد الله الرحموني.

من يومها أصبحت مؤذن مسجد «السيدة عائشة»، وكان الشيخ الضرير كلما سـمع آذاني يعقب مبتهجـا: صوتك يا بنـي قادر على جمع اليهود والمسـيحيين حول اسـم اللـه ورسـوله الأعظم، كنت أجده عند أسفل المئذنة فأهرب من ملاحقاته لي.

ذات يوم ناداني بعـد أن رفعت آذان الفجر، جلسـت بين يديه بعد أن قبلته على رأسـه ثلاث مرات ثـم قال لي: عليك يـا بني أن تخشـن من حبال صوتك قليـلا إنها قريبـة من صـوت الأنثى. كان يحدثني وفي صوته مثل رعشة.

نظرت إلى الشـيخ الضرير ثم إلـى أصابعي، تذكـرت والدي، وتذكرت أخي وأختي مريما وأستاذ الموسيقى، وعلى الفور فكرت في العودة للعـزف على آلـة العود، لكـن وجه الرجـل الأنيق الذي هزمني وخطف منـي فاطـي أبعدني، مرة أخـرى عن الفكـرة، ومن

خلفه أيضا رأيت جحافل أصحاب اللحى من إسلاميي الجامعة تتوعدني.

يا رب إني أطلب عفوك وخلاصك.

بعد كل آذان العشاء وأداء الصلاة، متحاشيا الاصطفاف إلى جنب الشيخ الضرير، مموها في لباسي الإسلامي الأفغاني الذي أصبح لباس الكثيرين من الشباب، كنت أقف بمحاذاة المطعم غير بعيد من بابه علني أسمع صوت فاطي، ألتقط شيئا من أنفاسها، النوافذ اللعينة ذات الزجاج العازل للصوت لم تكن لتترك أي صوت يتدفق إلى الخارج، ومع ذلك وبهذا القرب كنت أشعر وكأنني اسمعها، فأعود إلى المسجد لأؤذن بكل الفن وبكل النوسطالجيا.

عفوك يا رب أنت الغفور الرحيم، هذا الشيطان قد سكنني.

حين أصعد إلى رأس المئذنة التي بنيت على الطريقة الأندلسية، وقبل أن أرفع اسم الجلالة واسم نبيه العظيم الكريم، يختفي أمامي الخلق فلا أرى إلا صورة فاطي، وأشعر وكأنني أأذن لها وحدها، كنت أريد أن أقول لها بمكبر الصوت هذا: إنني هنا معلق ما بين السماء والأرض لأطل عليكِ، وكنتُ على يقين أنها قادرة على قراءة رسالتي المشفرة إليها حتى بين ثنايا اسم الجلالة واسم رسوله العظيم المرفوعين بتكبير وتعظيم في آذان الفجر.

كل ليلة، كنت أن أمشي بعد صلاة العشاء، لأحوم حول المطعم علني أسترق هسيس صوتها، لكن وككل ليلة نوافذ المطعم اللعينة بزجاجها المزدوج العازل للصوت لم تكن لتسمح بمرور النفس، لكني مع ذلك كنت أكتفي بمشاهدة أنوار مصابيح المطعم

الخافتة فأتخيل فاطي تغني بإبداع عال، وأطارد صورة الرجل الثعبان الذي كان يأكلها كل ليلة بعينيه ويقبل ظاهر كفيها بقبلتين على كل يد يفعل ذلك كما يفعل الممثل المسرحي المحترف.

بعد كل جولة ليلية، كنت أعود فأجد الشيطان قد سبقني إلى سريري، أجده بين المطارف يغريني بفاطي، فأستسلم له وأستمني وأتعوذ بالله من هذا الشيطان وأقفز لأتوضأ الوضوء الكبير قبل أن تجيء ساعة الفجر.

كنت متيقنا بأن فاطي هي الأخرى تنتظرني حتى مطلع الفجر كي تسمع صوتي يرفع اسم الجلالة واسم آخر الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلوات والسلام، صحيح أنني نذل وحقير وخائن، فقد تخليت عنها واستبدلتها بمكبر صوت في الحي الجامعي، نذل وحقير وخائن لأنني تركتها بين مخالب رجل ثعبان يريد أن يلتهمها حية بدءا من حبالها الصوتية وحتى أطراف أصابعها الناعمة التي يقبلها كل ليلة، مع ذلك لها وحدها كنت أرفع صوتي بكل هذا التبتل إلى السماء.

غفرانك يا رب، خلاصك يا رب !!

obeikandl.com

10

كُلْ من طعام اليهودي ونَمْ في فراش المسيحي

هـذا الصبـاح، قالـت لـي الحاجـة شـهيرا أم خوسـي، هكـذا كنـت أناديها، مـع أنها كانـت علـى ديـن موسـى، وكان يعجبها أن أناديها كذلك، والحاجة شـهيرا لا تتكلم سـوى العربية الوهرانية إذ تخاطبنـي أو تخاطـب ابنها خوسـي، وقـد تفاجـأت إذ وجدتني قد سـبقتها إلى الحمّام، والسـاعة لم تتجاوز الثامنة صباحـا وهو ليس موعـد اسـتيقاظي العـادي - خير يـا بنيتي، غريـب هذا الاسـتيقاظ الباكر؟

قلتُ لهـا وقد حاولـت أن أهـرب من سـؤالها: - لا شـيء يا الحاجة، فقد هرب عن عينيّ النعاس.

لم يقنعها هـذا الـكلام العام والأخلاقـي البارد، هزت رأسـها

وقد أدركت أن وراء ذلك شيئا ما، ثم انسحبتْ إلى المطبخ، كانت نظيفة وأنيقة في لباسها، على الرغم من تقدم سنها فقد شارفت على السبعين إلا أنها لم تتنازل عن العناية بجمالها، وإذ اختفت في اتجاه المطبخ، على الفور، عبق أريج القهوة، قهوتها هي، القهوة من صنع أيدي الحاجة شهيرا أم خوسي تشبه شراب الجنة، إذا ما حصل وأن فاتني فنجان قهوتها اليومي الصباحي أقضي نهاري برأس مدوخ مترنح كبطيخة بين كتفي.

لا يفارق جهاز الراديو أذن أم خوسي، تحب الاستماع إلى الموسيقى وتهتم إلى حد ما أيضا بمتابعة هول أخبار الأحداث التي تعصف بالمدينة وبالبلاد، هي تعرف أنني، ومنذ أن تأزم الوضع الأمني في الجامعة وأضحت المؤسسة تحت رحمة جماعة التكفير والهجرة، قاطعتُ جميع الدروس التطبيقية منها والمحاضرات.

مبتسمة كعادتها، جاءت بصينيتها النحاسية بين يديها وعليها إبريق القهوة وفنجانان عليهما رسوم غزالات مستنفرات كما في حالة تشبه أيام الإخصاب، أيام الرغبة الجنسية، رغبة السفاد، شربت فنجان قهوة الحاجة أم خوسي، على مهل، ولأول مرة أحدق في الرسوم على الفنجان الخزفي فتبهرني الألوان والأشكال: غزالات وطواويس وطيور جنة الله وكؤوس نبيذ وزرابي صلاة وأفخاذ نساء وسماء صافية زرقاء... أنظر إلى هذه المخلوقات العجيبة وأقول: - إننا نعيش دون عينين.

ارتديت العباءة الإسلامية الباكستانية الداكنة التي اقتنيتها من سوق حي المدينة الجديدة، وأنا التي ومنذ الصغر أكره هذا اللون، ثم انسحبت إلى الخارج، سمعت صوت الحاجة أم خوسي ترفع

الدعوة تلـو الأخـرى رافعة كفيهـا إلـى السـماء داعية لـي بالتوفيق وحسـن التدبير وثبـات العقل والإيمـان، حتـى دون أن ألتفت إليها كنت على يقين بأن شـهيرا أم خوسـي تسـتغرب حالي وأنا في هذا الهندام، كأنها اعتقدت أني جننت.

فعلا، كنـتُ أشـعر بزلزال يهـدد سـلامة أعصابـي، لكني وفي الوقت نفسـه كنـتُ مصرة علـى رؤيته، علـى رؤية مُومُـو أو محند، هيجني غيابُه، صوتُه هذا القادم خمس مرات في اليوم من على قمة مئذنة مسـجد «السـيدة عائشـة» أفقدني عقلي، ضيعني، بددني. في صوته تكلمني السـماءُ خمس مرات في اليوم، مـن صوته أصبحت السـماء صديقتـي بغيومهـا وصحوهـا، ظلامهـا ونورهـا ونجومهـا وقمرها، فيها أشاهد وجهه وألمس أصابعه الجميلة المثيرة والتي لا يحبها لأنه يتصورهـا أنثوية، هكذا كان يقول لـي في لحظات صفاء وامتزاج وشعرية.

مسجد «السيدة عائشـة»، ليس ببعيد عن بيت الحاجة شهيرا أم خوسي حيث أقيم، حين اقتربت من باب المسجد ولم يعد يفصلني عنه سـوى بضعة أمتار، شـعرت بخوف، ترددت، دار رأسـي وكأن فنجان قهـوة الحاجة أم خوسـي لم يفعـل فعله كما هـي العادة منذ سنة وأربعة أشهر، أو يزيد بأيام، ضاع مني الحساب.

أتقـدم أم أتراجـع؟ أعـود أدراج الزقـاق أم أواصـل؟ بين هذا التـردد والارتباك اسـتيقظ فـيّ فجـأة وجـه ذاك الرجل الخمسـيني الثعبان الغامض، وجـه اعتقدت أني نسـيتُه، اعتقـدتُ أن الأمر بيننا انتهى، يا إلهي لا شيء انتهى، ها هو الرجل الثعبان يُبعث من جديد وفي مثـل هـذه اللحظـات الحاسـمة، ليغرينـي، ليربكنـي كما حين

يقبل ظاهر يدي مع نهاية كل سهرة وقد اختفى عن نظري منذ ستة شهور وسبعة أيام وما عاد يزور مطعم أرتور رامبو وأمست طاولته مثلي عارية من الحنان ومن القُبل، حزينة مثلي كل مساء، ويدي أيضا أضحت حائرة باردة جافة تبحث عن شفتيه لكي تستقبل منهما القبلات الأربعة الدافئة. لماذا يا ترى يهجم عليّ وجهه بكل سماحته وغموضه وسره، وفي مثل هذا الوقت، فحيح ثعبان ناعم! وجه رجل اختفى وقد كنت في ما مضى من الأيام على وشك أن أغامر معه حتى النهاية، أية نهاية يا ترى؟، أن أضعني بين يديه المرتجفتين وهما في وهج الرغبة والإثارة.

الثعبان الأنيق هو الآخر خدعني وأتعبني بغيابه الطويل، غياب الميت، انسحَبَ حتى دون أن يخبرني عن سبب هذا الانسحاب، انصرَفَ دون كلمة، انتظَرتُه طويلا ومع كل ليلة أدخلُ فيها المطعم أتفرسُ أركانه فأجد المحل كئيبا، بارد المفاصل، متفائلةً أقول: سيكون إلى طاولته في اليوم التالي، طاولة فارغة وانتظار يُسقِط أوراق شجرته في فصل خريف لا ينتهي ولا نعرف له نهاية، وفي اليوم الموالي لا شيء يتغير سوى درجة رطوبة هذه المدينة الساحلية المِلْحيَّة، ودرجة كآبتي التي تزداد سديمية.

ذات مساء، قررت سحب الستارة نهائيا على الثعبان وعلى ماضيه معي، وعن نظراته التي لا تشبهها نظرات أخرى، ولكن لماذا إذ نسيته ها هو يستيقظ فيّ الآن فيهدم كل مشاريعي، على كل أنا مصممة اليوم على استعادة عازف العود مُومُو أو محند بكل الأسماء والنعوت التي يحبها والتي لا يحبها أنا مستعدة لاستعادته، إنه لي، أمشي، أخطو وأسمع صوت الآذان تحت أو فوق عزف

العود، هل نسيني؟ أنا متأكدة أنه هو الآخر يذكرني ويبحث عني لكنه قليل الشجاعة، بل فاقدها، فقد سحب منه والده ومنذ الصغر الثقة بالنفس وقتل فيه الإحساس بالرجولة بأن فضل عليه أخاه الأصغر الذي يشتغل الآن طبيبا نسائيا في مؤسسة عسكرية.

قال لي خوسي وأكدت لي ذلك أمه شهيرا بأن هذا المسجد الذي يُسمى اليوم باسم «السيدة عائشة» رضي الله عنها، كان في زمن ما جامعا لليهود، كنيسا ليهود الحي، ملكا لأحد أجداد خوسي، يُقرئُ فيه التوراة باللغة العبرية، ويرفع فيه اسم الله على دين موسى كليم الله، فتبرع به أحد ورثة المحل من اليهود، وكان شيوعيا، لرفاقه من المسلمين الذين كان غالبيتهم من صيادي البحر وعمال النقل والشحن في الميناء حين زاد عددهم وتجاوزت نسبتهم نسبة عدد سكان الحي من اليهود واستطاعوا أن يؤثروا في النقابة على الأرض وعلى الدين في السماء، كان أبراهام النقابي يقول: - المهم أننا نصلي لسماء واحدة ولرب واحد ونحب القدس بقوة وجدُّنا واحد هو إبراهيم عليه السلام حافر بئر زمزم المبارك الذي يسيل بعون الله حتى الآن وحتى تُروى الأرض ومن عليها من إنس وحيوان وطير وجان وحتى لن يظل عطش في حلق مخلوق إلى يوم تفتح أبواب الجنة أو أبواب حلم الشيوعية.

أحاول أن أطرد صورة الرجل الأنيق من رأسي وأنا أقترب من باب مسجد السيدة عائشة عليها السلام، أمام بيت الله هذا اصطف عدد كبير من الباعة المتجولين، باعة الفواكه والأدوات الكهرو-منزلية والمصاحف وأشرطة تسجيل لخطباء المساجد المصريين والسعوديين من الوهابيين المتشددين، غير بعيد وقفت فهجم علي

الباعة بالصراخ و هم يعرضون أمام عيني بضاعتهم، لففت جسدي أكثر في العباءة الإسلامية ثم غامرت في اقتحام الباب الحاني للمسجد الصغير، قابلني أحدهم على الباب قائلا: - باب الحريم من الجهة الخلفية.

المرأة دائما في الخلف أو في الخلفية، دون تعليق، اتجهت حيث أشار عليّ وفي عينيه نظرة خبيثة، وكأنه أراد أن يقول: - ابقي في بيتك ما دخلك في الله وفي الدين، ذاك للرجال فهم القوامون.

كنت أبحث عن ملامح وجه مُومُو أو محند في وجوه كل الرجال، في كل ما يتحرك من حول المسجد من ذكر، في الباعة الخائفين والملاحقين من البوليس، في المشترين، في وجوه الواقفين حيارى على الرصيف بدون سبب ولا معنى، وحتى في ملامح هذا الحارس الفض، لا منهم أحدٌ يُشبهُهُ، وفي الوقت نفسه عادت صورة الرجل الأنيق لتلاحقني بإلحاح عنيف فتستوطن في ملامح جميع الرجال فأراه فيهم جميعا وأحاول أن أطارد ذلك من رأسي ومن عيني الكاذبة.

شعرتُ، وحتى قبل أن أرمي نظري على الساعة الكبيرة في بهو المسجد لأدقق في الوقت، بأن موعد الآذان قد حان، أعرف وقت الآذان بالدقيقة والثانية، صيفا وشتاء وخريفا وربيعا، أدركه بالإحساس وليس بالنظر إلى الساعة المعلقة خلف كونتوار مطعم أرتور رامبو أو في صالون منزل الحاجة شهيرا أم خوسي الطيبة، تلك المرأة والتي على الرغم من مرور الزمن لم تفرط في جمالها ولا في مطبخها العريق، ولم تنس إعدادها أكلات عيد الهيلولة وقهوة السبت ودفينة عيد الفصح وأكلات أخرى تبدع فيها وتقضي

في إعداد ذلك أوقاتا طويلة: المشوط والمبسس والبغرير والحريرة والمعارك والبركوكس والمردود والمفلقة والروينة والعصيدة والمخلل والمثوم والمفلفل والدوبارة والشخشوخة والشكشوكة...

منذ سنة أو يزيد قليلا، ضاع مني حساب الأيام والليالي، منذ افترقنا، يوما بعد آخر، فصلا بعد آخر، صلاة بعد أخرى، وأنا أنتظر ساعة الآذان كي أستمتع بسماع صوت مُومُو ينزل من السماء عليّ بردا وسلاما، على الرغم من تغير موعد ساعة الآذان ما بين الصيف والشتاء والخريف والربيع، لكن هاتفا سماويا كان يرن في أذني قائلا: - هذه ساعة صوته، إنه المؤذن، إنه مُومُو. أصغي إليه وكأنني أأدي الصلاة التي لأجلها يرفع اسم الجلالة واسم رسوله محمد عليه السلام. وأبكي، بحرقة أبكي.

كنت أسمع صوت مُومُو رخيما حنونا يرفع اسم الجلالة واسم الرسول الأعظم عاليا خمس مرات في اليوم ومن خلفه كنت أتصور أنامله الرقيقة التي لم يكن يحبها، لأنه كان يجد في شكلها نعومة أنثوية بادية وقاتلة لكل ذكورة، تعزف على عوده الدمشقي لحنا خالدا.

ها أنذا في صحن المسجد الصغير، في جناح النساء، أثارتني أشكال وألوان بعض قطع فسيفسائية بدأت تتشقق وأوشكت على التساقط من على جدران تآكل من شدة رطوبة المدينة الزائدة وقد أعيد إلصاق بعضها بشكل عفوي وساذج.

رُفِع الآذان، صوته هو هو، صوت مُومُو، كان جسدي يرتجف وأنا أستمع إليه، كنت أرغب في أن أصعد إلى رأس المئذنة وآخذه من فمه الذي منه يخرج الصوت رافعا اسم الجلالة وأقبله بعنف

وأعض على شفتيه كما كنت أفعل ذلك في كثير من المرات في خلواتنا بالحي الجامعي أو عقب الاستمتاع بمشاهدة فيلم إيطالي في قاعة سينما الكوليزي.

أقيمت الصلاة، صليت أنا أيضا، أول مرة أصلي في حياتي، كنت أراقب وأتتبع حركات الركوع والسجود للعجوز الواقفة أمامي، وأقلد حركاتها بإتقان، وأتممت كما الواقفة بجنبي تُتَمتم، لا أجد في فمي سوى سورة الفاتحة أقرأها وأعيد قراءتها بخشوع.

فجأة هجمت علي صورة خالتي يامنة العالمة الحافظة لكتاب الله كاملا ولصحيح البخاري، التي بعلمها الكثير والكبير أخافت الرجال ولم يتقدم أحد لطلب يدها، وحين طال انتظارها وبدأت تلبس لباس يشبه لباس العلماء من الرجال نبتت لها لحية، وكان أخي الطبيب الذي يصغرني ببعض السنوات والذي أصبح اليوم رئيس قسم مصلحة الموظفين بمؤسسة إعادة التربية بمدينة الغزوات، يقول لي وبطريقة جادة: إن لها أيضا عضوا جنسيا ذكرا.

كنت أنظر إلى جسد خالتي وأركز النظر على منطقة ما بين فخذيها، باحثة عن شيء غريب نابت فيها، وبالفعل اكتشفت بأن لها شيئا منتفخا يشبه العضو الجنسي للذكور، وكنت أغبطها على ذلك.

كانت خالتي يامنة تعتني بلحيتها كثيرا، تمشطها وتصبغها قبل الذهاب لقراءة القرآن في سهرات الموتى وفي حفلات الختان التي كانت تحبها كثيرا وفي سهرات رمضان حيث كانت تقرأ وتختم القرآن كل سنة في صلوات التراويح.

كانت يامنة مبتهجة بالشعر النابت في مناطق حساسة من

جسدها، ذاك الذي ينبت على وجهها وبغزارة أكثر ذاك المعشوشب على عانتها التي لم تكن تتردد في الكشف عنها أمامنا في قيلولات الصيف، وكانت تأخذ حبة خيار ثم تنصبها فوق العانة على هيئة قضيب وتقول لنا وهي تمسك على الخيارة بيد وتمسِّك على لحيتها بيد أخرى: - كل ما فيَّ للفحولة، لا ينقصني إلا هذا، وتشير إلى حبة الخيار، ولكنها وعلى حين غرة تنهار في شهيق من البكاء الطويل والعويل. ثم تتركنا وهي تقضم الخيارة بأسنان شرسة لتنسحب إلى المسجد العائلي الصغير المجاور لغرفة القيلولة والتي هي عبارة عن صالون أو مضافة، يروى أن هذا البناء كان في الأساس بيت عبادة مشترك، مسجد وكنيس يهودي، وقد بناه جدنا الأول الذي يقال إنه جاء هذه البلاد واستقر بها صحبة مجموعات من المهاجرين اليهود، قدم إليها صحبة زوجتيه، إحداهما كانت مسلمة والثانية يهودية واللتين لم تلدا له سوى البنات و كان عددهن تسعة، لقد جاء هاربا من محاكم التفتيش ومن عصبية مسيحيي غرناطة الذين صادروا أمواله، وكان تاجرا ثريا ومعروفا في أسواق الأطايب والحرير من اصفهان إلى السودان وحتى بلاد البلقان.

لماذا أفكر في خالتي يامنة الآن، وأنا أقف في صف الصلاة، أراقب عن كثب حركات الرجال علني أرمق من بينهم مُومُو أو الشيخ محند كما أصبح يُنادى من قبل العامة في هذا الشارع الشعبي الضاج.

تعلمتْ خالتي التدخين وتعاطي تبغ الأنف والفم ويقال والله أعلم أنها كانت إلى ذلك تدخن الحشيش حين تجيئها حالة من

الهستيريا الصيفية، وكانت تصلي صلاة الجنازة مع الرجال.

لم أستطع أن أميز مُومُو في صفوف المصلين من الرجال الذين كانوا متشابهين في لباسهم وطول قاماتهم المنصوبة في ألبسة رياضية تشبه البيجاما أو في جلابيب بيضاء موسخة أو هكذا بدا لي بياضها حائلا ليس على ما يُطلَب ويُشتَهى البياضُ الثلجي.

مع ذلك لم أفقد الأمل في أن أراه، بمجرد مغادرة الجميع للمسجد في نوع من العجلة، تأخرت متذرعة بتوزيع بعض القطع النقدية على صفين متقابلين من الشحاذين والشحاذات، صف للنساء وآخر للرجال، كانت عيني على الرجال من المصلين وهم يغادرون المسجد يفركون بين الحين والآخر أعضاءهم الجنسية دون حرج، من بعيد لمحته، إنه هو، هو بطوله وحركات أصابعه الأنثوية التي كان لا يحب النظر إليها، وبمجرد أن تيقنت من أنه هو وحاولت أن أسرع الخطو في اتجاهه، تسلل إلى داخل سيارة توقفت قليلا عند قدميه ثم غابت في الزحام، تركتُ الشحاذين والشحاذات يصرخون أمامي في أدعية عالية وحاولت أن ألحق بالسيارة، دون أن أثير أدنى انتباه من المارة والمصلين، لكن دون جدوى.

حين فقدت الأمل في اللحاق به والقبض عليه، دحرجت جسدي في خيبتي ونزلت الزقاق الذي تعاظم ضجيجه أكثر في هذه الساعة، وقلت لن أتركك سأجيئك ثانية وأقبض عليك بين فخذي، ليس لك مني مهرب.

عيني على الرجال من المارة وكأنما أنتظر مباغتته لي بين الحين والآخر في هذا الزحام، ولكني كلما رأيت رجلا تَشَبَّهَ لي

على صورة الرجل الثعبان الأنيق الذي بعمر والدي. دون مسبقات هجمت علي صورته فحاصرتني من كل الجهات، فكنت وأنا أمشي هذا الزقاق الشعبي الضيق الذي يسمى «زقاق المعدومين» لا أرى إلا ملامحه متجسدة في كل ما يتحرك أمامي من هذا الخلق الذاهب والآيب على الرصيفين وبفوضى بين السيارات وخلف عربات بيع الخضر والألبسة المستعملة والأواني المطبخية والمكانس والدجاج الحي الذي يباع بالكيلو حيا حيث يذبح ويُريَّش في الحين وعلى الرصيف.

ها هو الرجل الذي يشبه والدي يعود ليستولي على دماغي مرة أخرى وقد كنت اعتقدت بأن النسيان غيبه عني إلى الأبد. ها هو يعود، فأشعر بقدمي تسوقانني إلى البيت استعدادا للالتحاق باكرا بالمطعم علني ألاقيه بعد أن خاب ظني في مُومُو أو محند، أنا متأكدة أنه سيدق باب المطعم هذا المساء وسيفاجئني ويفاجئ الآخرين من الرواد.

حين وصلت الشقة مشوشة البال وجدت شهيرا أم خوسي تنتظرني وقد شغلها كثيرا أمر لباسي الإسلامي الباكستاني وكذا الوقت الذي غادرت فيه البيت وهو ليس عادة وقت خروجي، ربما كانت تعتقد أنني لن أعود إلى العيش تحت سقف هذه الغرفة الباردة المفاصل، وحين قرأت في عينيها شيئا يشبه هذا الوسواس تمنيت لو أنني لم أعد أدراجي.

رميت العباءة الكئيبة، دخلت الحمام، تطلعت إلى وجهي ولأول مرة وجدتني أشبه خالتي يامنة، تلمست وجنتي واجتاحني خوف من أن تنبت لي أنا الأخرى لحية ويطلع لي قضيب بين

فخـدي، تلمسـت وجهـي كان ناعمـا، ووضعـت يدي بيـن فخذي فعثرت على عضوي فاترا ومفلطحا كما عهدته دون خيارة منتصبة. ارتحت، لكن صورة الرجل الذي يشبه والدي والمختفي من شهور أخذ يقلـق بالي أكثـر وأكثر وملامـح وجهه بدأت في محو تقاسـيم صورة مُومُو أو محند من انشغالي وهوسي.

جلسـت إلى الطاولة وقـد أعَـدَّت الحاجة شـهيرا أم خوسـي وجبـة لوبيـا بالعُصبـان، كانـت رائحتهـا مثيرة للشـهية لكن نفسـي لم تكن بهـا رغبة إلى أكل أي شـيء، أشـعر برغبة حادة فـي التقيؤ تصعد من عمق المعدة لتصل حتى الحنجرة، كانت الحاجة شـهيرا أم خوسـي تلح علـيّ بـالأكل، حاولـت أن أجاملها فما اسـتطعت، وقد ذكرتني وعلى شـفتيها ابتسـامة حكيمة قائلة: « أنتم المسلمون تقولـون: كُل من يـد اليهودي ونـم في سـرير النصراني» وأرسـلت ضحكة وكأنما أرادت بنكتتها هذه إشارة إلى العباءة الإسلامية التي لبسـتُها في خروجـي غير العادي هـذا اليـوم، أجبتها: - يـا الحاجة وقبَّلـتُ يدها، أنـتِ مسـلمة أكثر من المسـلمين والمسـلمات، أنت بمكانة أمي قلبُك علي دائما، ثم أسرعت إلى الحَمَّام وتقيأت بعض ما لم يسـتقر فـي بطني مـن اللوبيا، حين عـدت إلى جـوار الحاجة شـهيرا رأيت عليها علامة القلق وكأنما توقعت شـيئا من ذاك الذي يُتَوقَّع عادة بمجرد أن تتقيأ امرأة ما، قلت لها وقد قطعتُ انشـغالها: - لا شيء من ذلك يا الحاجة، إنه مغص عابر.

عـدت إلـى غرفتـي وإذا وجه الرجـل الثعبـان الغامـض الذي بعمر والدي يحاصرني بملامحه الهادئة يسـكنني ولا يريد أن يغادر رأسي، دققت النظر فيه، فوجدته شَبَهَهُ بأبي يزداد أكثر وأكثر، وعلى

الفور جاءتني فكرة الذهـاب للبحث عنه، ولكنني لا أعرف له أثرا في هذه المدينة التي بدأت تتحرك كما لو كانت على كف عفريت، ثم ما فتئت أن طرت الفكرة من مخيلتي نهائيا، ولم أدر كيف، حتى وجدتني ألبس أجمل ما في دولابي استعدادا للقائه وقد شعرت بأنه لن يتأخر هـذه الليلة ليلة أخرى، سـيحضر، سـيدخل مطعـم أرتور رامبو وسـيجلس إلى طاولته، سـيقرأ بصوت خافت، كما في الأيام السـابقة، بعض مقاطع من قصيدة «يوغرطة» لرامبو والمعروضة في شـكل لوحات زيتيـة كاليغرافية معلقة بشـكل متوازن علـى جدران المطعم، وسينظر إليَّ وسيُقبِّلُ ظاهر يدي مرتين كما يفعل الممثلون وأصحاب الجاه في السهرات الراقية.

هذه الليلة سـيجيئ وإذا لم يظهر سـأرد باب القلب عليه نهائيا وإلى الأبد.

تعبتُ.

لماذا كلمـا قررتُ غلق بـاب القلب بقفل جديد فـي وجه هذا الرجل الأنيق الذي يشـبه والدي يخرج نسـخة جديدة مـن المفتاح من جيبـه الداخلي، كالسـاحر تمامـا ثم يفتحـه بتؤدة ضاحـكا تارة ومبتسما تارة أخرى؟ وأستسلم.

أَقَدَري هو الجري إمـا وراء الرجل الثعبان الذي يشـبه والدي والذي كان يغيض أمـي بإبداء إعجاب ظاهـري كاذب بخالتي يامنة التـي ظلت على حـرب معها، رجـل لم أسـأله حتى عن اسـمه، أو الجري في أثر مُومُو أو محند الذي ضاع فـي زحام الخطب الدينية وسـلالم المئذنة ورفضه النظر إلى أنامله التي تشـبه أنامـل الفتيات العازبات؟

قالت لي الحاجة شهيرا أم خوسي وقد أدركت حيرتي: - من يجري، يا بنيتي، وراء أرنبين، في الوقت نفسه، لن يقبض على أية واحدة منهما.

وبكيتُ.

obeikandl.com

11

من علامات الساعة

الزقاق الوسخ الذي عبرته كان فارغا إلا من بعض القطط التي لم تعد تخشى المارة وبكل حرية، على الأرصفة، تمارس سخونتها الجنسية بشهية وعواء لذة يشبه عواء التعذيب، الشبق والألم شقيقان، كلاهما يولد من عسل اللذة، ومن كلاب ضالة هزيلة تتشمم فضلات أكياس الزبالة، ومن شباب بعيون فارغة متسمرين عند قدمي عمارات كولونيالية كئيبة هرمت وتقشرت صبغتها وتشققت شرفاتها حتى أشرفت على السقوط، حين دخلت مطعم أرتور رامبو، مبكرا هذا المساء، وجدت خوسي ينشف بعض الصحون والكؤوس بفوطة بيضاء ناصعة، تعجبني حركاته المتناغمة وهو يمسح تلة من الصحون ومثلها من الكؤوس كأنما يعزف على آلة الكمان، استغرَبَ خوسي قدومي في مثل هذه الساعة المبكرة قليلا، كعادته، قبَّلَني على وجنتيَّ مرتين، وكعادته

obeikandl.com

أيضا، سألني عن أحوال أمه الحاجة شهيرا، عن صحتها وعن لباسها وطقم أسنانها قائلا: لم أزرها منذ أسبوع، اشتقت إليها، إلى صوتها وإلى رائحة طبخها وعطر صابونها وإلى القطة غاتا المدللة والكسولة...

كان يتحدث عن أمه وعن القطة غاتا دون أن يرفع عينيه في اتجاهي ودون أن يوقف حركته التي تشبه حركات عازف الكمان وهو ينشف الصحون وكؤوس النبيذ والبيرة المختلفة الأشكال والأحجام، حين انتهى من تنشيف الصحون والكؤوس، كعادته، بهدوء مسح يديه الكبيرتين في مئزر مطبخ نظيف معلق على صدره ينزل حتى ركبتيه فيغطيهما، مليء برسومات حيوانات خرافية وأسماك بأجنحة وبعض النباتات التي لا توجد إلا في الجنة كما أتخيلها دائما وكما وصفتها لي خالتي يامنة بتدقيق إذ لم تكن تترك شيئا جميلا أو شهيا أو غريبا إلا وأدخلته في محتويات الجنة من نساء وغلمان ورجال وعسل وسمن وورد وعطور وعصافير وأكل وفواكه ومركوبات وظلال وحمّامات وأسرَّة وطنافس وأشياء كثيرة كانت تصفها لي وكأنما رأتها بأم عينيها، ثم قال لي: - جئتِ في وقتك يا فاطي، أريد أحدا أقاسمه كأسا. أنا الأخرى كانت بي رغبة شديدة إلى شرب كأس نبيذ، ولكني وكعادتي لا أستطيع أن أشرب أي مشروب كحولي قبل أن أحتسي فنجان قهوة معصورة، وخوسي يعرف ذلك جيدا، وقبل أن يفتح قنينة النبيذ ضغط على ذراع آلة القهوة فسالت سوداء مقطرة. فرغت السائل الأسود على جرعتين سريعتين في بطني ثم وضعته جانبا، شعرت براحة ما، ثم التفتُّ إلى الطاولة التي تعوَّد الرجل الثعبان الأنيق الذي يشبه

والدي الجلوس إليها وحيدا، وقد بدا لي شبحه جالسا هناك ينظر إليّ بذات النظرة التي ظل يغرسها في جسدي وفي عيني منذ سنة وأكثر، ما عدت أفقه في حساب الأيام، المطعم فارغ على آخره، لا أحد، وحين لا يكون هناك أحدٌ تبدو صالة المطعم واسعة كملعب تنيس، قال لي خوسي وهو يدحرجني من قمة هذا الوهم والسرحان: - كأسك يا فاطي، اشربي قبل أن يهجم علينا الزبائن، اليوم هو نهاية الأسبوع.

- كأسك.

ثم وجدتني أحدثه عن طبخة اللوبيا بالعُصبان التي حضرتها أمه وعن عطر توابلها ومرقها، مصمص شفاهه وقال: - حين كانت الحاجة شهيرا تقوم بالإشراف على مطبخ مطعمنا هذا، كان الناس يحجزون أماكنهم يومين أو ثلاثا مسبقا، بفضلها وصلت سمعة مطعمنا إلى العاصمة وقسنطينة، وكان يهود قصبتي هاتين المدينتين يغارون مما تبدعه أنامل أمي، وقد أطلق بعضهم اسم شهيرا على طبخات شعبية رائجة استوحوها من إبداعاتها.

نظرت إلى خوسي، لأول مرة أنظر إليه بهذه الطريقة، بهذا العمق، وبهذه الدهشة أيضا، وكأنني لم أره قبل هذا الكأس، وجدته جميلا وأنيقا ومثيرا لشهية الجنس وهو في طقم الشغل وبهذا المئزر الذي يغطيه حتى ما تحت الركبتين، وتساءلت بخبث ومكر في نفسي: - لماذا فكرتُ في الرجل الثعبان الذي يشبه أبي وبعمره ولاحقته كل هذه المدة ولم أمنح خوسي بعض الانتباه مني. كنت عمياء.

لأول مرة أكتشف جمال أسنان خوسي وكأنها أسنان ملكية

اصطناعية، ما يدهش ويجذب في الرجال أسنانُهم ورائحة جواربهم !! كان خوسي، هو الآخر، ينظر إلي بنوع من الحيرة وقد اكتشف بعضا من دهشتي وأنا أتأمل عينيه على غير العادة، الآن أكتشف في عينيه بريقا لم يكن ليتجلى لي من قبل، كان مختبئا في عجلة الأيام وفي سرعة الزمن الذي عشناه معا في هذا المكان العام دون أن يرى الواحد منا الآخر.

بين جرعة وأخرى كنت أسترق نظرة إلى خوسي فأجد في عينيه ما لم أنتبه إليه منذ قرابة السنتين، أيستطيع الرجل أن يخفي جمره بكل هذه البرودة وهذا التعقل، لقد شتتني حضوره الغريب هذا دفعة واحدة كما لم يفعل ذلك منذ أن دخلتُ هذا المطعم يدي في يد مُومُو أو محند. ارتبكت، وقد زادني خلو المكان من الزبائن ارتباكا وارتجافا ورغبة غير مفهومة ولا مفسرة. كنت أتمنى لو أنني اختبأت في زرقة عينيه واختفيت نهائيا كمن يلقي بنفسه في بحر هادر هروبا من قدر اسمه الرجل الأنيق الذي يشبه والدي.

وإذ أَدْرَكَ تَشَتُّتي المفاجئ أمامه وبين يديه بدأ في سرد حكاية أمه التي كانت تتمنى أن تكون مغنية مشهورة أو حاخامة في معبد قروي معزول، كانت الحاجة شهيرا تقول وتكرر: – الغناء عبادة، إنه كالصلاة تماما بتمام. وكيف أن والده الذي كان نقابيا متشددا قتل فيها رغبة الدين والغناء معا ودفع بها إلى صفوف النضال في الحركة النسوية ولم تكن تحب ذلك أبدا، ومن جراء ذلك فقدت شهيرا رغبتها في الحياة وانعزلت لفترة طويلة غارقة في قراءة كتب الأدب القديم وبالأساس الشعر الذي كانت لها قدرة غريبة على حفظه، ثم دون أن تدري وجدت نفسها طباخة هذا المطعم لمدة

ربع قرن تقريبا، أعجبها تواجدها في هـذا الفضاء، إذ لم تكن تتردد بين الحيـن والآخر لتغني على هـذه المنصة الصغيـرة، بذلك كانت توقظ رغبة الغناء القديمـة النائمة في قلبها ومشـاعرها، كان الزبائن يصفقون لهـا كثيـرا ويحترمونها أكثر، لم أكن أسـمع أي شـيء مما كان يرويه عن أمـه الطباخة الماهرة والمغنية وحفاظة الشـعر، بلهفة ودقة غريبتيـن كنت أتتبـع حركة شـفتيه وارتطام ضـوء الصالة على لون عينيه، فأرتجف.

هذا المسـاء هروبا من نظراتي التي أربكته، زلزلته، قال أشـياء غريبـة، لم يسـبق أن تفـوه بهـا عن أمـه وخاصة عـن علاقتهـا بأبيه النقابـي الـذي كان مِثَلِيًّا وهو مـا جعل أمـه تهجره وتقيـم علاقات مع رجـال كثريـن، ولم يكـن والـده يجد فـي ذلك حرجـا، ولأول مرة أعرف أن خوسـي هو ثمرة مـن واحدة من تلـك العلاقات غير الشرعية التي كانت تربط أمه برجال من اليهود والمسلمين على حد السواء.

فجأة وأنا أتابع بشـغف تفاصيـل حكاية أمه متخيلـة مغامراتها مع النقابييـن والصيادين وعمـال الميناء من رفاق زوجها، تسـاءلت بيني وبيـن نفسـي، وبتسـاؤلي ذلـك بـدأت الرعشـة التي سـكنتني تتراجع والنـار تخمد، قلـت في نفسـي: - ربما يكون خوسـي هذا أخي، فقد كان والدي كثير المغامرات مع النساء وخاصة اليهوديات في مدينة وهران التي كان يجيئها ليقيم بها أياما وليال قبل أن يتذكر بأن له بيتـا وزوجة وأطفالا فيعـود إلينا كالكلب الضـال وقد صرف كل أمواله وفوق ذلك يكون قد تدين كثيرا. كان مغرما بجمال أنف اليهوديات، يقول ويكرر: - الرجل المسـلم أنـف، وجمال اليهودية

أنف.

نظرت إلى خوسي كما لم أنظر إليه من قبل، دققت النظر فيه جيدا فوجدته يشبهني تماما، وأقسمت في نفسي بأنه أخي، وحين سكنتني هذه الفكرة، شربت كأس نبيذي على دفعة واحدة وأخذته بين ذراعيّ المرتجفتين وقبلته على فمه، قبلة الأخت لأخيها.

لم ننتبه لمرور الوقت، كان حديثه عن أمه عميقا، شفافا وجريحا، وكأنما كان يرغب في تصفية حساب دفين ضد والده الذي حرم أمه من أن تكون مغنية كبيرة أو حاخامة، لقد قص جناحيها بأفكاره النقابية المتزمتة الخشبية ولم يتركها تطير في سماء الله الواسعة، لأول مرة أكتشف تعلقه بأمه الحاجة شهيرا، حب لم يكن ليبين عنه، وبهذه الكآبة والغضب، لولا شعوره هو الآخر بأنني أخته التي استعادها هذا المساء لكان قد حصل الذي منه بد !

حين بدأ يحكي لي قصة القط غاتا المدلل، تغيرت ملامح وجهه من كآبة إلى ابتسامة، كسَّرتْ دقات أول الزبائن على باب المطعم خلوتنا وصادرتْ حكايةَ القط الذي من فصيلة سياموا، كانت موسيقى جرس المحل على صوت عصفور الكناري ترن، لقد حان وقت العشاء، فتحتُ الباب، حييتُ القادِمَيْن الأوليْن وهما من الرواد المعروفين المتعودين على المطعم، طبعت على كل منهما قبلتين على الوجه، ثم اتخذا لهما مكانا في أقصى الصالة الفارغة، رميت نظري على هذا الفراغ المحشو بالكراسي والطاولات النائمة فبدت لي الصالة غريبة وكأنني بمكان لم يسبق لي أن رأيته أو وقفت فيه من قبل، الأماكن تتغير تبعا لتبدل أمزجتنا، هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا المكان خاليا وفي

مثل هذا الوقت مشحونا بكل هذا السر المكنون، حتى خوسي لم يعد خوسي، إنه أخي.

في الخارج كان الجو باردا قليلا، نحن في شهر فبراير، والأمطار لا تكاد تتوقف عن التهاطل المتقطع منذ أسبوع على هذه المدينة التي وكأنما تستعد لاستقبال أمر غريب.

منذ الصغر، يعجبني المشي تحت المطر وأكثر من ذلك تغريني مشاهدة زخاته من خلف زجاج نافذة صافية الرؤية، ربما اكتسبت هذا الإحساس الشفاف من تلك الصورة التي كنت أحبها كثيرا في كتاب المطالعة للسنة الثانية ابتدائي والتي فيها تبدو طفلة في غمرة الفرح مرتدية مئزرها الوردي تسابق حبات المطر على رصيف خال وهي عائدة من المدرسة، كلما سقط المطر إلا وتذكرت تلك الصورة، وكأنني أنا طفلة تلك الصورة الملائكية، هي أشياء لا ننساها أبدا.

في أقل من ساعة عادت صالة المطعم إلى حركيتها، وخرج الضجيج من الليل الذي عسعس ليغطي على صمت اختفى فجأة، وبدأت الضحكات والأصوات ترتفع قليلا قليلا في أحاديث عن السياسة والتجارة وأخبار المدينة وسوء الأحوال الجوية والحكومة والتهريب وغلاء السردين وندرة البطاطا في السوق وغلاء العُمْلَة الأجنبية.

بشكل عفوي، في حيرة مني، التفت باحثة عن الرجل الأنيق الذي يشبه والدي وبعمره، وكأنني أنتظر دخوله الآن، هذا المساء كاد خوسي، قبل أن أستعيده أخا لي ضيعه والدي المسيار، أن ينسيني الرجل الأنيق الذي جاء بي مبكرا، كلما انفرج الباب أو غرد

عصفور الجرس ليدخل أحد الزبائن يرتجف قلبي فأقول: – هو ذا. لكن وفي كل مـرة كان قلبـي يخونني، ومـع ذلك أصر بأنه سـيدق هذه الليلة وسيغرد عصفور الجرس تغريدة غير مألوفة تحت ضغط أصبع إبهامه الأيمن، إبهام بظفر مشـقوقة وخنصـر بخاتم من كبيرة من فضة أصلية.

أتحرك مـا بيـن الطـاولات وأنتظـر الرجـل على شـوق وقلق فتهجم عليَّ، ودون سـابق إنذار، صـورة وجه مُومُو فأشـعر وكأنني أخونه أو أغتاله، أحاول أن أدقق فـي تفاصيل ملامح وجهه فتختفي فجأة في ملامـح ذلك الرجل الذي أنتظره على قلق، والذي سـيدق اللحظة باب المطعم بعد أن غاب طويلا دون أن يترك تفسـيرا لسـر اختفائه. الثعبان الذي يظهر ويختفي.

كلما قررت أن أنسـاه، أجده سـاكنا في تلافيـف مخي وتحت جلدي الحساس.

obeikandl.com

12

اليوم الذي ظهر

حين ظهر الرجل الثعبان بعد غياب وقد تركني أُشْوَى على جمر لشهور، قررت ألا أتركه يغيب أو يهرب مني ثانية، وعلى الفور اخترت أن أغامر معه، ربما بهذا القرار كنت أبحث عن أب لم أشبع من عطفه ولم يكن قادرا حتى على النظر في عيني، كان يعتقد بأن النظر إلى جسد البنت عيب وهي من صُلْبِه، كنت أحب والدي أما هو فكان يخاف أن يقول لي: إني أحبك. كان لا يتجرأ أن يجلسني في حجره وكنت أحب الجلوس في حجره، كان يتحرج أن يقبلني على وجنتي وكنت أمسكه من العنق وأتعلق به وأقبله على الفم فيهرب من شفاهي ويدفعني بعيدا عنه.

أبهذه المغامرة أستعيد والدي بالشكل الذي كنت أريده أن يكون عليه؟ يحبني ويقبلني ويجلسني في حجره ويدخل أصابعه في شعري ويسألني عن أدنى ألم يصيبني من تسوس ضرس أو

obeikandl.com

وجع الرأس أو حالة قيء عابرة أو جرح بسيط جراء عثرة في حجر...

الرجل الأول الذي أحببته هو أبي، كنت أحسد أمي على مبيتها إلى جواره، ومرات كنت أتمارض كي يسمحا لي بالمبيت معهما في ذات الغرفة حيث تفرش لي أمي على مضض بعض المطارف على الأرض، بعيدا عن قدمي سريرهما العالي ذي الأرجل الحديدية التي تنتهي بقطع من الجلد تغطي نهاية الأطراف، مرات تساءلت لماذا يا ترى يحرص والدي، وبشكل دوري، على تغيير هذه الجلود التي يقصها من بقايا دواليب السيارات القديمة؟ يحدث هذا مرة على الأقل في الشهر، وأمي هي الأخرى كانت لها كل عيونها على هذه القطع الجلدية، كنت أعتقد أن السرير بدون هذه القطع الجلدية سيهوي بهما لا محالة ذات ليل، أنا الأخرى وخوفا على أبي كنت، وفي غفلة من أمي، أدخل الغرفة وأتفقد القطع الجلدية وإذا ما وجدتها قد تآكلت أقول لوالدي بأن زلزالا سيهز سريرهما وأنهما معرضان للسقوط، كان أبي يضحك مني، أما أختي الكبرى زهور فكانت تقول لي: - إن حرص أبي على تغيير القطع الجلدية هو من أجل ألا يصدر السرير ضجيجا أو صوتا قد يزعج إخوتي النائمين في الغرفة المجاورة !!

مع ذلك كنت متيقنة بأن لا كلام أبي ولا كلام أمي ولا حتى كلام أختي كان الحقيقة.

كنت أعتقد أن تبديل القطع الجلدية هو فعل يقوم به والدي من أجلي، فهو يحبني ولا يحبني، ومَنْ يحب ولا يحب عليه أن يُرَكِّب أحذية لقوائم السرير كي لا يسقط لا في الحب ولا في

اللاحب.

وتبعت الثعبان.

لم أتفاجأ حين قال لي الرجل الثعبان الأنيق الذي يشبه والدي: – سأبدل اسمكِ هذا، من اليوم وإلى ساعة القبر سيكون لك اسما آخر تلبسينه لباسا جميلا، سكتَ قليلا وكأنما كان يبحثُ عن شيء ضائع في تلافيف ذاكرته: أسميك هديل.

حينما نطق لسانه بهذا الاسم الجديد «هديل» شعرت وكأن جناحين ملوني الريش بما يشبه ألوان ريش الطاووس نبتا فجأة على لوحتي كتفيّ، وكنت مستعدة للطيران، قادرة على الوصول إلى أبعد نقطة في السماء، وأدركتُ وكأنني قبل أن يلبسني الرجل الثعبان الذي يشبه والدي اسم «هديل» كنت أنتمي إلى فصيلة من الزواحف المنقرضة، ولأول مرة أحسست بأنني لا أحب اسمي فاطي، سعدت بهديل اسما جديدا علني بذلك أتخلص من ذاكرتي وأنسى صاحب الأنامل الأنثوية مُومُو الذي خدعني وتنازل عليّ في أول معركة جمعته وجها لوجه مع رجل بعمر أبي والذي يأكلني الآن بعينين مغمستين في حيرة، ونحن في ليلتنا الأولى.

تساءلت هل إننا حين نلبس اسما جديدا ننسى ما تعلق بنا من ذكريات مرتبطة بالاسم الأول؟ بدت لي التجربة مثيرة، فقد يساعدني «هديل» على نسيان فاطي، من يخلق الذكريات يا ترى؟ هل الذكريات هي التي تصنع الاسم أم هذا الأخير هو الذي يصفي الذكريات ويراكمها في جِرارٍ يُصَفِّفها الواحدة جنب الأخرى كجِرارِ العسل والقطران، تُصفُّ حسب الأهمية وحسب عمق الجرح وبهاء الفرح؟

دعاني إلى بيته، وعلى الفور استجبت لدعوته، كنت لا أريده أن يفلت من بين يدي ثانية، أرغب في الجلوس في حجره واللعب بربطة عنقه وإدخال أنفي في شعره الممشوط بعناية، أريده أبا ضيعته وعاشقا خانني ورضي بالهزيمة في أول معركة بل وحتى قبل أن يبدأها.

حين دخلت بيت الرجل الذي بعمر والدي لأول مرة، رَمَيْتُ بعيني في الصالون أتفحص ملامح بعض الوجوه المتكررة في صور معلقة هنا وهناك دون تنسيق، صور جماعية أو فردية في إطارات مختلفة الأحجام، لم تثرني من جميعها سوى صورة فردية لامرأة في الأربعين من عمرها، على جمال بارز، وحزن باد، واضحة الملامح، في عينيها ينام سر أو مكر أو شبق، وفي صورة أخرى وضعت في صدر الصالون بدا فيها الرجل الذي سلمتُ له نفسي يقف إلى جانبها بكل أناقته وسره.

أقلقني وجود هذه الأنثى، صورة المرأة قبالتي أربكتني، غيرت مكاني كي لا أواجه نظرة الرقيب في عينيها الواسعتين، أدرت لها ظهري وعلى التو شعرت به يتنمل، مع ذلك وإذ تخلصت من نظراتها الحادة الحية شعرت بالراحة قليلا وجاءتني رغبة عارمة في احتساء كأس نبيذ أو أي شراب كحولي يخلصني من هذا الارتباك الغريب الذي أثارته فيّ صورة هذه المرأة.

الغرفة باردة والشقة فارغة والمطر لا يزال يسقط، ينقطع ويعاود الهطول بالتناوب، حين استدرتُ وجدتُ المرأة قد تحررت من إطارها اللوحي البسيط، خرجت من الصورة ونزلت إلى الصالون حيث أنا جالسة، كانت ساكتة، ارتعشتُ، بحثتُ عن

الرجل الذي يشبه والدي، بدا لي من خلال الباب المفتوح واقفا في المطبخ يحضر كأسين ومشروبا، كان يحمل سكينا كذلك الذي كان يستعمله والدي في قص قطع الجلد من دولاب الجرار العتيق ليلبسها أقدام السرير حتى لا يسقط لا في الحب ولا في اللاحب.

كانت المرأة التي نزلت من الصورة واقفة تضحك بطريقة هستيرية دون أن تقترب مني، وحدي كنت أسمع صوت ضحكتها يرن في أذنيّ، لا وجود لصدى ضحكتها في الصالون، والرجل لا يزال يحرك السكين بين يديه بطريقة مثيرة، بدت لي المرأة شبيهة بأمي إلا أن أنفها كان أطول، تماما كأنف الحاجة شهيرا أم خوسي، أنف يهودي مثير للرغبة الجنسية، هكذا كان يقول أبي.

الغرفة باردة، الشقة صامتة، مسحتُ النوافذَ بعيني علني أعثر على نافذة مفتوحة، لا شيء من ذلك، جميعها مُغَلَّقة، الرخام الأرضي التقليدي النظيف يذكرني بما رأيته ذات يوم على بعض قبور الأثرياء في مقبرة النصارى المنظمة تنظيما شعريا، مقابر النصارى بأشجارها وورودها وصمتها تجعلك تتصالح مع الموت الذي يصبح امتدادا للحياة في شكل مغاير، الموت عند النصارى لا يخيف، ظهري تجمد من البرد ومن الخوف الذي بعثته ضحكات المرأة، الرجل الذي اختفى في المطبخ ها هو قادم، نظرت إليه بدا لي شبيه أبي مائة بالمائة، بلباسه وابتسامته وحركة يديه وسكينه والخاتم الذي يلبسه في خنصره الذي ظهر صغيرا أكثر بكثير من الأصابع الباقية، كاد الخاتم أن يغطيه من قمة الضفر حتى آخر القاعدة.

بردت عضلاتي، تجمدت، ازدادت رغبتي إلى شرب كأس

نبيذ أو ويسكي بالثلج ينقذني من قساوة نظرات المرأة التي غادرت إطارها وهي الآن تنظر إلي من الخلف، أهرب من نظراتها فتلاحقني كالسهام، أرغب في الذهاب إلى دورة المياه، أريد أن أتبول، وأنا المبوالة كما كانت تسميني أمي وخالتي يامنة، لم أتحرك من على هذا الكرسي منذ دخلت الشقة، شعرت به لاصقا على ردفيّ، بيني وبين نفسي تساءلت، لست أدري لماذا تساءلت:

– يا ترى، هل كان والدي يحرص أيضا على تغيير القطع الجلدية الموجودة في نهايات الكراسي المصطفة في الصالون؟ الحقيقة إنني لم أره يفعل ذلك يوما، وما كان هذا الاهمال بالأمر ليزعج أمي التي تشبه المرأة التي نزلت من الصورة مائة بالمائة باستثناء طول الأنف.

عاد الرجل الأنيق الذي يشبه والدي إلى الصالون بعد أن اختفى بعض الوقت وكنت أتمنى عودته دون سكين، فعلا لم يكن يحمل بيده سكينا يشبه ذاك الذي كان يستعمله أبي في تقطيع الجلد لوضعه على نهايات أرجل السرير الذي ينام عليه هو وأمي التي لها أنف أقصر من أنف المرأة التي خرجت قبل قليل من الإطار ونزلت من الصورة لتراقبني في الصالون، كان يحمل بين يديه صينية نحاسية لامعة صفراء اللون عليها كأسان من البلور الحقيقي، جلس قبالتي، صب لي كأسا دون أن يطلب رأيي، تمنيته ألاّ يطلب رأيي، أو بالأحرى إنني لم أنتبه إلى صوته الذي غطى عليه صوت المرأة التي تتكلم في ظهري البارد المثلج، أو في أذني، أو في رأسي.

فهم الرجل الثعبان، وقد بدا أنيقا أكثر من ذي قبل، من أن

الغرفة باردة فأضاف في المدفأة بعض الدرجات معلقا: - الطبيعة أصبحت مجنونة، الشمال أضحى جنوبا والجنوب شمالا. البرد قارس ونحو على أبواب الربيع.

صوته يشبه صوت والدي. كل بنت بأبيها معجبة.

لم أرُد. وسمعت المرأة تقول، قالت ذلك في أذني: - البرد رسالة القبر.

حمل غطاءً صوفيا خفيفا ولفني به قائلا: - ستسخن الغرفة بعد قليل، شعرت به وهو يضمني بين ذراعيه وكأن صوت المرأة أخذ ينسحب قليلا قليلا من أذني ومن الغرفة، كان عطره هادئا وأنفاسه مثيرة لرغبة غائبة.

حين لفني بالغطاء وغمرني بأنفاسه اختفت صورة أبي من أمام عيني، انسحبتْ، غابتْ، تبخرتْ، لم أعد أراها متجلية مرتسمة في ملامح الرجل الذي كان يرتب بعناية وفن بعض الصحون الخزفية على الطاولة، بين الحين والآخر يغرقني بنظراته الغامضة، ينظر إلي بشهية ذكر، تحركت شهيتي إليه وإلى شفاهه التي كانت تقبل ظاهر يدي كل مساء، خفت لو أنني عزمت على تقبيله على الفم أن يبعدني كما كان والدي يقوم بذلك وفي حركاته ارتباك وانزعاج غير خفيين.

بدأت الغرفة تدفأ قليلا قليلا ومعها أخذ جسدي يستعيد قليلا من حرارته، كسر الرجل الصمت بأن أشعل جهاز التليفزيون ثَبَّتَ الصورة على قناة أجنبية، بدون صوت، حيث فرقة موسيقية كثيرة العدد وبمختلف الآلات تعزف سمفونية، أثار إعجابي قائد الأوركسترا بحركاته وجديته وأيضا بلباسه وعصاه، لبعض الدقائق

شـدني المشـهد ثم بدأ الملل يتسـرب إليّ من المنظـر المتكرر، لم أفكـر يوما فـي تجريـب مشـاهدة الموسـيقى بـدلا عن سـماعها !! شـعر الرجل بحيرتي وأنا أشـاهد السـمفونية دون صوت، أعجبتني اللعبة، إلا أن الرجل فاجأني بإطفاء بعض المصابيح الزائدة والقوية في إنارتها والتي ظهرنا مـن تحتها وكأننا فئـران مخبر تحت أضواء كاشفة حادة.

اقترب مني الرجـل، جلس قبالتـي حتـى كادت ركبتاه تلامس فخدي، أتحسـس أنفاسـه من على هذه القرب، عرفـت نوع عطره، هادئٌ ومثيـرٌ للرغبـة الليليـة، حدقت فـي ملامح وجهه فارتسـمت مكانهـا ملامـح مُومُـو أو محنـد، بـردت مفاصلي، شـعرت بحجم الفراغ الذي تركه فيّ اختفاء مُومُو، مددت يدي لكأس النبيذ أفرغته دفعة واحدة في بطنـي، أريد أن أتخلص من هـذا الحضور الغياب. تعود موسـيقى السـمفونية في شـكل حركات متناسـقة دون صوت لتسرقني من خلال الحركات المنسجمة لبعض العازفات والعازفين بوجوه ملائكيـة، اندمـاج الجميع، مقطـع عالي الأداء، سـماع دون صوت ! أن تتخيل الموسيقى أفضل وأعمق من سماعها.

«هذا أجمـل مقطـع فـي السـمفونية التاسـعة لبتهوفـن»، قالها الرجل دون أن ينطق، والتليفزيون صامت، أو هكذا فهمت منه دون أن يقول شـيئا، صب لي كأسـا أخرى، هو كان يشرب شـرابا آخر، لم أنتبـه إلى طبيعته أو اسـمه، الشـراب حرية وفن وذوق كالسـياقة تماما بتمـام، لم يفاجئنـي تعليقه على السـمفونية، فعلـى الرغم من شـكله وحركاته التي تشـبه حركات وسـلوك رجال الديـن إلا أنني كنت واثقة مـن أن هذا الرجل لـه علاقة إما بالرواية أو بالموسـيقى

الكلاسيكية، أراحني تعليقه كثيرا، مما جعل النبيذ يأخذ طعما آخر في فمي.

تعليقه المختصر على السمفونية جعلني أحاول مطاردة صورتي والدي التي عادت لتحاصرني وصورة مُومُو اللتين كادتا أن تخفيا حقيقة وجود هذا الرجل الثعبان أمامي، وكلما حاولت ذلك، وبلعت كأسا نبيذ أخرى تجلّت لي فيه أكثر وأكثر تارة ملامح والدي الذي كان يخشى أن يُقَبِّلَني أمام الناس وحتى أمام أمي ونكاية فيه وفي خوفه كنت أقبله على فمه وأبلع ريقه العسلي وتارة أخرى ملامح مُومُو الذي كان يخاف النظر إلى أصابعه التي تشبه أصابع أخته مريما الذكية.

obeikandl.com

13

صورة النساء !

حين شعر الرجل الثعبان الأنيق، أو على الأقل هكذا توهمتُ، بأنني أهرب من صورة المرأة ذات الأنف الطويل المحبوسة في الإطار الكلاسيكي، والتي بمجرد دخولي تحررت من سجنها وترجلت في الصالون، ربما لتسألني عن السبب الذي لأجله جئت مع هذا الرجل وفي هذه الساعة من الليل وفي هذا الشتاء المتأخر القارس، بدأ يقص عليّ حكاية المرأة، والتي أكتشف الآن بأن صورها موجودة في كل مكان وحتى في عينيه:

... هذه صورة شُمَيْسَة، أختي، هي توأمي، ولدنا في لحظة واحدة، من ألم واحد متواصل، وعشنا معا تسعة وعشرين سنة وخمسة وأربعين يوما، معا كنا في الحياة متلاصقين كما كنا في الرَّحِم، لم نفترق فيها يوما واحدا، ذهبنا إلى المدرسة ثم إلى المتوسطة ثم إلى الثانوية معا، اجتزنا معا امتحان الباكالوريا، بنفس

obeikandl.com

الخوف، وحصلنا على نفس العلامات، تماما بتمام، ونجحنا بذات التقدير وبذات الدرجة، وفرحنا معا، كنا ننام مُتَحاضِنَيْن، لا أستطيع أن أنام دون أن أشعر بأنفاسها تغمرني، هي كذلك، والغريب أننا كنا نحلم نفس الحلم، في الصباح، يحدث أن أحكي لها حلمي، كانت تقابلني بعينين مفتوحتين على وسعهما فتصحح لي ما أكون قد نسيته أو اختلط لي أمر فيه، ومثلها كنت أكمل ما يكون قد سقط من ذاكرتها من تفاصيل أحداث وقعت في قصة حلمها، كنت أرى حلمها وكانت ترى حلمي. ولم يكن يثير فينا هذا الأمر عجبا، بل كنت أعتقد أن من واجبها أن تذكرني بما أكون قد نسيته أو تناسيته عمدا كي أتحقق من أنها كانت معي ووفيّة لي في النوم كما في الصحو وأيضا كنت ألمس سعادة غامرة وهي تتابعني وأنا أُكمِّل أو أصحح لها بعض الهفوات في سرد تفاصيل ما حدث في حلمها، أذكرها بألوان الألبسة وحجم أزرار المعطف وعددها، فتضحك سعيدة وتقول: والله كدت أنسى حُلُمي، الحمد لله أنك موجود، لم تكن ناسية بل كنت أدرك أنها تختبر حضوري الكامل في منامها وفي تقاسمها تفاصيل أحلامها.

كنا نمشي إلى المرحاض في نفس الوقت، إما أجدها قبلي أو تجدني قد سبقتها، ونضحك.

حين أكلم أحدا فأجد هاتفه مشغولا، أعرف على الفور بأن شُمَيْسَة هي من على الخط معه، وحين أعيد الاتصال بعد تحرير الخط يقول لي بأنه كان في مكالمة مع شُمَيْسَة.

حين بلغت شُمَيْسَة سن المرأة !! حاولت أمي إبعادها عني فأصيبت بمرض خبيث يشبه الجنون، ومثلها أُصِبْتُ بكآبة وقررتُ

مـرات أن أنتحر. وحيـن دارت في رأسـي الفكـرة جاءتني شُمَيْسَـة قائلة باكية: لا تمت، إنك سـتقتلنا معـا. كانت أكثـر ذكاء مني حين يتصل الأمـر بالموت، وتراجعتُ عـن قرار موتي، لأننـي كنت أرى أنها أكثـر حكمة مني، لأنهـا، وكما أذكـر، تفوقت عليّ مـرة واحدة بـأن أخـذت نقطـة أفضل منـي فـي مـادة الحسـاب، كان ذلـك في السـنة الخامسـة ابتدائـي، وأذكـر كان معلمنا اسـمه السـي احْميدا، وقد اسـتغرب هذا الفرق الأول من نوعه في العلامـات، بيني وبين شُمَيْسَـة، تلك النقطـة اليتيمة هي الفـرق الوحيد بيننا طـوال العمر، هي النقطة الفارقـة التي جعلتها تقـول لي «لا تمـت»، وعدلت عن الموت.

الغرفة سـخنت، وحكاية الرجل الأنيق مع شُمَيْسَة أخته التوأم مثيرة وغريبة ومخيفة، الآن أشـعر بحرج إذ أنني لا أعرف اسم هذا الرجل الثعبـان الذي قادني بسـحر عجيب إلى هذه الشـقة، في هذا الليل وفي هـذا البـرد وتحت هـذا المطـر المتقطع، فأنا لـم أطلب منه اسـمه يوما ولو مرة واحدة، في مطعم أرتـور رامبو كان الجميع يناديه ب: الشـيخ، لمـاذا هذه التسـمية؟ لسـت أدري. هـذا الرجل الذي لا أعرف حتى اسـمه، فـي حضوره دوخنـي بحكايته مع أخته شُمَيْسَة وفي غيابه جَنَّني.

أردت أن أطلـب منه اسـمه، لكني لـم أتجرأ، شـعرت وكأنني بذلك أكشـف عن جسـده عاريا دون رغبـة منه. على كل الأسـماء ليست مهمة، كثير من العباد لا يحملون أسماء متطابقة مع أشكالهم وسلوكاتهم، لا معنى للاسم.

حاولت أن أبلع سؤالي إلا أنه ظل معلقا في حلقي.

شـرب كأسـا من مشـروبه، الـذي أعتقـد أنه مشـروب عشـبة الزنجبيل، مشـروب الجنة، مشـروب أفروديكي (أي مهيج للجنس) سمعته يقول مثل هذا الكلام ضاحكا ذات مساء في مطعم رامبو.

شـعرتُ بحذائي يُتعبني وقد شُـد على قدمي بقوة حـدَّ الألم، سـحبته الفرديتيـن خفيـة وبطريقـة خفيفـة، دون أن أسـحب قدمي من تحـت الطاولـة، جـرى الدم حـرا في أسـفل القدمين وتنفسـت الصعداء، قام الرجل وبرقة عالية قدم لي شبشبا قطنيا قرمزي اللون، وضعه عند قدمـي قائلا: - البرد قـارس ولعيـن، لا تضعي رجليك على أرض عاريـة، إنني رفعـت زربية الصالـون وهذا البـرد اللعين يعود من جديد وفي غير أوانه وعلى غير العادة.

خجلت من نفسـي ومـن الطريقة التـي تخلصت بهـا من زوج حذائـي ذي الكعب العالـي، وقلت في نفسـي:- إن عينـه على كل شيء فيّ، من رفة الرمش إلى أخمص القدمين.

أردت مطاردة خجلي فشـربت كأسـا أخرى، تمنيته أن يواصل الحديث عن أختـه التوأم التي مـا عادت تخيفني، بـل على العكس من ذلك بدأت أبحث عنها في الإطار الـذي اختفى من جراء إطفاء بعض المصابيح القوية، دونها شعرت بالوحدة أو الوحشة.

غيرت من مكاني، عدت إلى الوضعية التـي كنت عليها لحظة دخلـت الصالـون، واجهـت الصـورة، بـدون خـوف دققـت النظـر في ملامح شُمَيْسَـة في هـذه الصـورة بالأبيض والأسـود، أعجبتني ابتسـامتها، ابتسـامة لم أنتبه إليها من قبل، وكأنها تصحح خطئا وقع فيه أخوها وهو يسـرد تفاصيل قصة حلم جنسـي، الحقيقة هو ليس خطئ من الأخ التـوأم إنما هروب من التفاصيـل المثيرة والتي بقدر

ما كانت هي تحب الحديث التفصيلي فيها كان هو يهرب منها مع أنه مثلها تماما كان يريد الحديث وبتفصيل فيها، ربما هذا الاختلاف الواهم بينهما نتيجة تلك النقطة الزائدة التي حصلت عليها في علامة الحساب، ذات مرة في زمن التلاميذ.

وكأنه سمع صوتي الداخلي، فعاد لمواصلة سرد حكاية أخته شُمَيْسَة، وقد علت ملامح وجهه كآبة عميقة ورمادية، تمنيته أن يتوقف عل الحكاية قبل أن يبدأ، إذ أنني توقعت أن النهاية ستكون فجائعية، لا أريد لهذه الابتسامة الانكسار، كان بعيدا، سابحا في زمن شقي مضى ولكن ندوبه لا تزال محفورة في القلب وفي الجسد.

«... حين دق أحد أبناء الجيران باب بيتنا، ذات صيف غير رحيم، طالبا يد شُمَيْسَة للزواج، كانت أمي فرحة، إذ أنها لم تكن لتتوقف عن تعييرها بالفتاة «البائرة»، ذاك اليوم رفعت حنجرتها بزغرودة عالية حارة وصلت مسامع نساء الحي، ارتعدت فرائص أختي لهذه الزغرودة غير العادية وأسرعت إلى دورة المياه تبعتها أنا الآخر وأفرغت نصف بولتي في سروالي، الشاب الذي خطب أختي شُمَيْسَة رجل بوليس لا ينقصه شيء على حد قول أمي المبتهجة: - شاب بلباس رسمي أزرق بأزرار مذهبة صفراء لامعة، وله مسدس ينام باستمرار على جنبه الأيمن، في محبس عند الحزام، محشو بالرصاص القاتل، وذخيرة احتياط حية، وله شأن في المدينة.

ومثلما حزنْتُ حَزِنَتْ شُمَيْسَة، مثلما بكتْ بكيتُ أنا أيضا، أخذتها بين ذراعي وأقسمتُ لها بألاّ يمسها بشر ولا جن وأن لا

أحد قادر على تغييبها عن عيني، لأول مرة تساءلت: - لماذا لا نتزوج أخواتنا، هن أقرب إلى قلوبنا وإلى فهومنا؟

بالنسبة لي، غياب شُمَيْسَة سيكون فادحا في الليل أكثر منه في النهار، خفت أن يفقدني غيابُها حاسةَ الحلم، وعليه سأفقد نصف حياتي، وسأظلُّ بدون ظل ولا مرآة.....

الرجل الذي اختلطت عليّ ملامحه ما بين أبي ومُومُو وقد بدأ النبيذ يدغدغ دماغي، يواصل سرد قصة أخته التوأم بكثير من التدقيق والتأمل والحزن وكأنما يعاود عيش أحداثها مرة أخرى الآن، كنت أراقب ارتعاشة شفتيه وهو يتحدث وكأنما يرفع صلاة أو دعاء أو يروي قصة أحد النبيئين.

نسيت كأس النبيذ بين يدي حتى سخنت، شربتها دفعة واحدة، راغبة في التركيز أكثر على الحكاية، لكن الرجل الذي اقتسماه أبي ومومو ترك الحكاية معلقة في السماء وذهب إلى المطبخ، عاد بعد دقائق دون أن يحضر معه شيئا، لماذا غاب هكذا وعاد بهكذا؟ لم يكن يحمل الخنجر، ولم أكن جائعة فأنا لا أتعشى إلا نادرا، صحيح أنني أشعر بلسعة جوع في معدتي، الساعة متأخرة الآن، إذ أوشك الصباح أن ينجلي، نظرت إليه وقد شعرت بأن بي رغبة جارفة لسماع صوت المؤذن، فهذا موعد آذان الفجر. تمنيت أن أغادر المكان على الفور لأجلس في الزقاق الضيق قرب مسجد السيدة عائشة لأسمع آذان الفجر وأرى في اسم الجلالة واسم نبيه الكريم المرفوعين بجلال صورة مُومُو، لكن القصة، قصة شُمَيْسَة المعلقة في الهواء دون نهاية شدتني إلى أوتاد هذه الشقة.

نسي نهاية القصة أو وسطها، أطفأ جهاز التلفاز الذي كان

يتحرك بصور دون أن يشاهده أحد منا.

قال لي: - إذا كنتِ متعبة، يمكنكِ أن تنامي على السرير، وأشار لي إلى غرفة مقابلة، بابها موصد، أما أنا سأكتفي بالتمدد على الأريكة، لقد تعودت على النوم هنا في الصالون، نادرا ما أنام على السرير.

سَكَتَ قليلا، كأنما يستعيد قطعة ضيعها من بُوزْلي ذاكرته ثم أضاف: - هل تصدقين لو قلت لكِ إنني ومنذ أن اختفت اختي لم أذق حلما، أنام على السرير أو على الأريكة فأشعر برأسي كسطل ماء فارغ.

خفت من نوم على سرير قد يجلب لي الكوابيس، رحل عني التعب وعلى التو هرب النوم عن عيني وكنتُ أتمنى أن يُكمل سرد حكاية أخته التوأم بعد خُطبتها من قبل الشرطي، نظرتُ إليه وعادت صورة والدي لتغمر ملامحه، فتغيب رغبة الأنثى مني في حضرة قدسية صورة الأب، كان هادئا لم يمسسني وأنا التي اعتقدت أنه سيأكلني بمجرد أن يُغلق الباب خلفنا، لا شيء من ذلك، فكرت أن أغادر المكان، لكن الساعة متأخرة وضوء الفجر قد تجلى من خلال النافذة التي تقابلني عليها ستار حريري أبيض شفاف.

الرغبة في الاستماع إلى نهاية قصة أخته شُمَيْسَة هي التي أبقتني في المكان، كنتُ أريد أن أطلب منه سرد نهاية القصة لكنني تراجعت لما لاحظته عليه من تأثر بالغ وهو يروي قصة أخته وكأنما يروي قصته هو بعيدا عن تلك النقطة اللعينة علامة الحساب الوحيدة التي فرقت بينهما.

شعرت بإحساس يشبه الغيرة من شُمَيْسَة التي كلما جاء ذكرها تسيل على لسانه عسلا، يتحدث عنها كما يتحدث عاشق عن عشيقته، ثم تساءلت: هل هي أخته أم عشيقته؟ ثم هجمت عليّ أفكار شيطانية، لتتسابق أمامي وفي رأسي صور مثيرة عن علاقة مشبوهة ما بين هذه المرأة التي في الصورة وبين هذا الرجل الذي يطلب مني أن أنام على السرير وهو على أريكة في الصالون.

بهدوء، على أطراف أصابعي، انسحبت إلى الغرفة المقابلة، زوج حذائي بيدي، أشعلت المصباح، تجلت الغرفة بأثاثها البسيط المرتب: سرير زوجي واسع يتوسط الحيز، مرتب، كأن لم ينم عليه أحد منذ زمان، أغطية نظيفة وإزار أزرق ينزل حتى الأرض، صورة كبيرة لشُمَيْسَة في إطار مذهب عند رأس السرير، لا أستطيع أن أنام بدون أن أفرك أسناني، ومع ذلك قاومت وتسللت إلى السرير دون ذلك، شعرت بمثانتي ثقيلة وأرجعت الذهاب إلى المرحاض إلى الصباح، كنت أتمنى أن أسمع صوت المؤذن الذي أعشق، لكن لا شيء من ذلك، بتعب سحبت، من على جسدي، سروال الدجين اللاصق بفخذي وبإلْيتي، شعرت براحة، ارتميت على السرير، فكرت في غسل slip سروالي الداخلي، هي عادة أمارسها منذ سنين، كل ليلة قبل النوم أقوم بفرك أسناني وغسل سروالي التحتاني القصير المصنوع من الدانتيل قبل أن أتسلل إلى فراشي، لكني تراجعت، خفت من الرجل الذي يتمدد على الأريكة في الصالون بكل عفوية وهو لا يزال بحذائه وطقمه المخطط وربطة عنقه الوردية.

مددت يدي، أطفأت المصباح، شعرت براحة ممزوجة بخوف

أو قلـق، عاودنـي التعب، ثم بـدأت أفكر وأتسـاءل عـن نهاية قصة شُمَيْسَـة، شـرعت في وضـع احتمـالات لنهايتهـا: انتحـار أم زواج سـعيد وأطفال بلغ عددهم العشـرين بين الإناث والذكور التوائم أم جنون، وإذ فكري غارق بين عشـرات الاحتمالات شـعرت بجسـد دافئ يلتصق بجسدي العاري.

استسلمت له بمتعة وسـمعت لحظة الشبق ما يشبه آذان الفجر وتذكرت والدي الذي كان لا يتركني أقبله على فمه ولا يسـمح لي بالجلوس في حجره.

في أنفـاس الرجل كنت أبحث عن والدي الـذي كان جبانا لم يتجرأ يوما على تقبيلي وأنا ابنته التي تحبه كثيرا كثيرا !!

obeikandl.com

14

القامة

في الصباح بدا لي الرجل قصيرا قليلا بطول والدي تماما بتمام، وهو الذي كنت أراه البارحة ليلا طويلا، ربما ممارسة الجنس تنقص في طول قامة الرجل وتزيد في طول قضيبه؟

كنت أسترق النظر إلى ملامح وجهه علني أقف عل بعض شبه بينه وبين ملامح المرأة التي يقول إنها أخته التوأم والمعلقة صورها في كل مكان، والتي تحاصرني من كل الجهات وقد لحقت بي حتى في غرفة النوم، وأنا ممددة على السرير عددت الصور، ما وقع نظري عليها من مكاني هذا دون أن أتحرك، فوجدتها تفوق الثمانين صورة، أربعة وثمانون بالضبط، بين صور فردية وأخرى ثنائية وثالثة جماعية، لا شبه على الاطلاق ما بين الرجل الذي أمامي والمرأة التي في الصور.

صباحا كما البارحة ليلا، البيت خال، لا أحد في هذا البيت

obeikandl.com

الواسع حيث الصالون يفتح على حديقة لم أتبينها بشكل جيد ودقيق، شربنا القهوة، كانت منعشة وقد عبق أريجها في الغرف والصالون والرواق، لولا أن الماء الذي غليت فيه به بعض الملوحة التي عكرت ذوقها، على كل هي مدينة وهران معروفة بمائها المالح أو الشلح ولكنه متميز. كان الرجل الأنيق الذي فقد من طوله بعض السنتمترات في صباحنا المشترك الأول هذا صامتا مرتبكا لا يفارق نظره صورة شُمَيْسَة وهو يحتسي قهوته السوداء في فنجان عادي، صيني الصنع عليه رسم للعلم الشيوعي الأحمر المرصع بالنجوم وعلى الأطراف بعض الموتيفات التقليدية غارقة في اللون الأصفر والأزرق والأحمر والتي ترمز لغصون شجر السرو والدالية أو لشيء يشبه بعض مخلوقات جنة خالتي يامنة، دققت النظر في أصابعه ظهرت لي غير متجانسة مع حجم يديه وشفتيه وأذنيه، أنتبه الآن إلى أن شكل زوج أذنيه يشبه التفافة صدفة الحلزون، تماما مثل زوج أذني والدي التي كثيرا ما لعبت بهما وأدخلت شاهديّ في ثقبيهما المُشعَّرين، ذلك ما كان يسمح لي به، إذ كان يتركني أفرك له عمق ثقبي أذنيه بأصبعي الرقيقة، يستلذ ذلك فلا يرفض ولا ينزعج ولا يطردني، وأنا الأخرى كنت أشعر بلذة غريبة حين أدخل أصبعي في أذنه، جسمي يرتجف.

تساءلت لماذا لليل قوة تحويل الأشياء العادية إلى أشياء مثيرة، وذاك ما كنت أشعر به البارحة فكلما نظرت إلى الرجل الأنيق جالسا إلى طاولته أكتشف أشياء مدهشة في يديه وفي صمته، الآن أشعر بشبه قلق أو ضجر وأنا أسرق النظر إليه وهو في صمته الصباحي يشرب قهوة محدثا صوتا مسموعا من شفتيه.

تمنيته أن يتكلم وأن يحكي لي ما تبقى من سيرة هذه المرأة التي يقول إنها أخته التوأم والتي اسمها شُمَيْسَة. أتساءل: أليس هو من يكون قد قتلها؟ أرشفُ القهوة دون سكر، منذ خمس سنوات لم أعد أشرب القهوة السوداء إلا مزة، ولكن لماذا قتل هذا الرجل أخته شُمَيْسَة؟ أحاول أن أطرد هذه الأفكار الغريبة من رأسي، لكن قضية القتل تلح عليّ، ثم أرشف ما تبقى من قهوة في الفنجان دفعة واحدة وقد بردت تماما وأفكر في أن الرجل الذي يشبه والدي يخطط الآن لقتلي أنا بعد شُمَيْسَة وسيعلق صوري في كل ركن وربما سيقول بحزن لامرأة يستقبلها ذات ليلة باردة: - إنها ابنتي الوحيدة، ثم يعرض عليها أن تنام فوق السرير ويتمدد هو على الأريكة في الصالون لأنه يحب ذلك وقد تعود النوم هناك منذ أن فقد ابنته الوحيدة (التي هي أنا) وعند آذان الفجر أو قبله بقليل يلتحق بها في السرير يحتضنها حتى ينزف منه الشبق وفي الصباح ينقص جسمه في الطول بعض السنتمترات !! ومثلي ستتساءل المرأة عن سر طوله المختلف ما بين الليل والنهار.

حين رفع عينيه في اتجاهي شعرت وكأن عضوه الجنسي وقد استطال بعض الطول لا يزال بين فخذي منتصبا صلبا فتزحزحت من فوق الكرسي، وشعرت بي مبللة، رغبت في العودة إلى السرير واحتضان الرجل في الظلام، لكن لا ظلام وقد هجمت بعض أسراب من الطيور على أشجار الحديقة، إنها تتزاوج.

قلت له: -.. وهل تزوجتْ أختُك التي اسمها... وافتعلت نسيان اسمها وكأنما سقط من رأسي وظل على الوسادة، خطيبها الذي دق بابكم وزغردت له أمك فرحا؟

استدار نحوي، شعرت بالبلل أكثر ما بين فخذي، وضع فنجانه على طرف الطاولة وبدا وكأن جسده سكنته رجفة أو حيرة، تمنيته أن يسحبني ثانية إلى السرير، لكنه خشي أن يفقد من طوله بعض العلو، ثم قال وقد تغير صوته وكأنما استعار حبالا صوتية من حنجرة شخص ثالث لم أره موجودا معنا في هذا البيت الواسع المهجور: – تلك قصة طويلة يا هديل، ثم سكت وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه فجأة ويريد أن يستعيده قطعة قطعة ولو بشكل غير كامل، كأنما يريد أن يغربل أشياء اختلطت عليه في الذاكرة، أن يصفي الجروح ويرتبها واحدا واحدا، يترك بعضها ينزف والبعض الآخر يجففه. قلت في نفسي وأنا أتابع ملامحه وهو يحاول أن يرتب بصعوبة تضاريس ذاكرته المشتتة: ربما إن اسم هذه المرأة التي في الصورة هو هديل وليس شُمَيْسَة كما يقول، ربما يريدني أن أعوض له الفراغ الذي تركته له أخته التي لا أعتقد أنها أخته، حين فكرت في ذلك جف البلل الذي كنت أشعر به في عضوي الجنسي وغابت من ذهني الصورة المهيجة لقضيبه المنتفخ المتصلب منتصبا بين فخذي كوتد خيمة.

15

بلاغة قط

اليوم قررت أن أعـود إلى بيت شـهيرا طالبة منهـا أن تأذن لي بمصاحبـة القط غاتـا كي يعيـش معي فـي هذا البيـت البـارد. بيني وبين غاتا علاقة حميمة فلا يأكل إلا من يـدي ولا يخرج لمواعيده الغرامية الليلية إلا إذا فتحت له الباب قبل أن أغادر أنا الأخرى إلى ليلي، مرات كنـت أغار مـن حياته المليئـة بالحرية وأحـزن لحياتي التعيسة الروتينية.

غاتا قـط ذكـي أكثـر مـن ذكاء مُومُـو، له عاشـقات فـي الليل اللواتـي يذهـب إليهـن أو اللواتـي يجيئـن للبحـث عنه حتـى عتبة الدار، مـن بينها قطـط العائـلات الكبيـرة البورجوازيـة ومنها بعض المتسـكعين أبناء الطبقة الرثة وحثالة المجتمع، لغاتا في النهار حياة النوم والراحة ولـه في الليل المغامرة والحرية، يشـبهني أو أشـبهه، خلقنا لليل لا للنهار.

obeikandl.com

المرأة قطة، أو القطة امرأة تعيش في حالة تنكر أو انتظار.

لم يكن سهلٌ علي مغادرة عِشْرَة الحاجة شهيرا التي قضيت في أحضانها سنوات تجاوزت الخمسة، ولكني قررت ذلك دون ندم أو كآبة حين اكتشفت وبمحض الصدفة ذات مساء وأنا أستعد للمغادرة للمطعم بأن لشهيرا اسما آخر غير هذا الذي أدعوه بها منذ خمسة أعوام أو يزيد، حين قرأت وبالصدفة اسمها الحقيقي على فاتورة الكهرباء: سعدية بنت عمران، قلقتُ كثيرا لهذا الاسم الرسمي الغريب المرسوم على الفاتورة والذي أعيش معه وأقاسمه ويقاسمني رائحة الطعام والصابون والحكايات واستولى عليّ شعور غريب وكأن شهيرا كانت تخونني.

أذنتْ لي شهيرا أن أصحب معي غاتا ليرافقني خلوة هذا البيت الذي أتقاسمه مع هذا الرجل الذي لم أطلب منه اسمه والذي يتناقص طوله كل يوم بعض الميلمترات أو السنتمترات، مثل والدي، كما كانت تقول أمي، كان كلما مارس معها الجنس ينقص في اليوم التالي بعض السنتمترات، حتى خشيت أن أفقد هذا الرجل، أن يتبخر كلية ذات يوم.

تذكرت الحكاية الشعبية التي طالما حكتها لي خالتي عن الرجل-الحُمُّصَة والذي سقط ذات يوم في قدر الطبيخ وهو على النار، ضحكت بيني وبين نفسي وأنا أتصور الرجل الثعبان الأنيق في شكل حبة حمص.

كانت للرجل شهية كبيرة لممارسة الجنس، تساعده على هذا التهيج بعض الكتب التي كان يقرأ فيها عند الظهيرة وقبيل العشاء، كتب مكتوبة بلغة لا تشبه أية لغة أعرفها أو سمعت بها،

كتابات مدعومة برسومات لوجوه هندية أو باكستانية. سوماطرا؟ كنت أشعر وكأنه يريد أن يعوض لي ما فاتني من جنان الرغبة التي أخطأتها في علاقتي مع مُومُو وتلك التي ضيعتها في حب والدي الذي لم يكن يسمح لي بتقبيله على وجنتيه أو احتضانه أو حتى الجلوس في حِجْره.

كل ليلة، ونحن نمارس الجنس، كنت أشعر بأننا ننام أربعتنا في سرير واحد: أنا ومومو وأبي والرجل الذي يتناقص طوله وتزداد شهيته للجنس أكثر وأكثر، كنت سعيدة بهذا السرير الذي يحملنا نحن الأربعة دون أن تكون أطراف قوائمه مُلَبَّسةً بقطع جلدية مقصوصة من دولاب سيارة قديمة كما كان حال سرير أبي وأمي.

حين شاهد الرجل القط غاتا في حجري ارتجف، وعلى الفور أرسل غاتا مواء حادا لم أسمع مثله منه من قبل، في العنف والخوف والحيرة، لم يتمالك الرجل نفسه أمام مواء غاتا، استدار متحاشيا النظر إلى القط، تناقص طوله بعض الملمترات، واندلق لسانه يحكي فصلا آخر من قصة شُمَيْسة أخته التوأم:

.... في الليلة التي تمت خطبتها فيها، وقُرِئت فاتحتُها فقدت شُمَيْسة حاسة النوم نهائيا، من ليلتها لم تُغمض لها عينٌ ولو لدقيقة واحدة، وفي المقابل أصبحتُ أنا الأخ التوأم أنام بديلا عنها، أنام الليل من مغرب الشمس إلى مطلعها وجزء كبيرا من النهار وكأن ما فقدته أختي من ساعات النوم أصبح من نصيبي، كانت شُميْسة وبمجرد نزول الظلام تتسلل خفية إلى ساحة مهجورة غير بعيد من بيتنا، قطعة أرض فارغة لم تُعمَّر بعد، قيل إن حولها خلاف

ملكية بين الورثاء، وقيل إنها ملك لشركة يابانية ستبني عليها مقرا لبنك للتنمية الريفية موجهة لدعم تربية الدواجن البيولوجية، وقيل إنها لأمير خليجي سيجعل منها فندقا بسبعة نجوم، على كل نظرا لإهمال المكان فقد أصبحت الساحة فضاء يلتقي فيه مجموعة من السكارى الطيبين الذين لا يزعجون أحدا وتتجمع فيه بعض القطط القادمة من كل الأحياء تتقاسم ما يسقط من وجبات السكارى الكريمين، تأتي شُمَيْسة الساحة في موعدها المحدد تجلس على كرسي مهمل مرمي في ركن، كرسي لوحي بثلاث قوائم، تحدق في السماء وكأنها تعد النجوم أو تقرأها، لا أحد يحدثها ولا أحدا تحدثُه ممن حولها من السكارى الذين كانوا يحترمونها ويقدمون لها كل أنواع السجائر، وقد أصبحت مدمنة على التدخين.

في لياليها الأولى، يدفعني إحساس غريب وخوف عليها، دون أن تنتبه إلى وجودي، كنت أتبع شُمَيْسَة حتى الساحة المهجورة وأتخذ لي مكانا غير بعيد منها، أراقبها وأحرسها من وحشة هذا الليل، ولكن النوم العنيد لم يكن ليتأخر عن عيني، أقاومه ثم أقاومه كي تطول حراستي لأختي التوأم لكن النوم لا يلبث أن ينتصر علي دون مقاومة تُذكر مني، فيأخذني فأستسلم وأغرق في عسله ممددا فوق الكارطون الذي أفترشه، فيجيء السكارى وبكل لطف وعناية يحملونني على أكتافهم ليعيدوني إلى بيتنا، لتبق هي جالسة على كرسيها ذي الثلاث قوائم صاحية مصحصحة تنظر إلى السماء وهي محاطة بقط غريب لا يتوقف عن التمسح بها، في الصباح، حين أستيقظ، أجد نفسي في السرير وشُمَيْسة جالسة عند رأسي فاتحة عينيها غير المتعبتين تلعب بشعري وتقول أشياء غير

مفهومة.

غريب، منذ خطوبة شُمَيْسَة ومنذ بدأت خرجاتها الليلية إلى الساحة المهجورة لم أحلم حلما واحدا، لقد أصبح رأسي كالبطيخة الفارغة، سطل ماء فارغ. حين لا نحلم نشعر بأننا نعيش نصف حياتنا، الحياة تكتمل بالأحلام وبالكوابيس أيضا.

كانت ليلة لا تشبهها ليالي الخرجات الماضية، بأم أذني سمعتُ شُمَيْسَة تتحدث إلى القط السمين الذي يجلس بجوارها بكل أدب واحترام، كان هو الآخر يجلس على كرسي بثلاث قوائم، الرابعة كانت مكسورة موضوعة عند قدم شُمَيْسَة، كانت تسأله ويجيبها، يسألها وتجيبه، كانا لا يتوقفان عن الكلام والحوار الجاد، وكان القط أكثر ثرثرة من أختي، فرأسه يبدو مليئا بالأفكار والأخبار والأشياء الغامضة، كانا لا يترددان في الضحك العالي وهما يعلقان على خبر أو نكتة، ضحك لم يكن ليثير السكارى الذين تعودوا على هذا المنظر حتى أضحوا يرون فيه شيئا عاديا: فتاة تكلم قطا، قط يكلم فتاة، يتحاوران ويضحكان مما هما فيه من حديث،... وما الغرابة في ذلك؟

في صباح اليوم التالي، كعادتي صحوت على شُمَيْسَة تلعب بشعري الذي نسيتْ أن تقصه لي وهي التي اعتادت أن تفعل ذلك بشهية وهي التي تجمع، من سنوات، ما تقصه من خصلاتي في كيس كبير، وأنا لا أزال ممددا على السرير الذي أعادني إليه ليلة البارحة السكارى الطيبون، وهي تدخل أصابعها الرقيقة وتفرك فروة رأسي بطريقة مثيرة، نظرت إليها كان وجهها منورا، لم أشاهده كذلك قبل هذا اليوم، يا عجبا ! أنتبه الآن إلى لون عينيها لأجده

قد تغير وأصبح شـبيها بلون عيني القط الذي يرافقهـا ويتبادل معها أحاديـث الليـل، لقـد تغيـر مـن اللـوزي إلـى الأزرق، أزرق فاتح، أدركتْ شُمَيْسَـة دهشـتي من لون عينيها الجديد، فأشـاحت بنظرها وألصقته بسـقف الغرفة، إذ تخلصـتُ من تأثير لـون عينيها وزادتني حركات أناملها على فروة رأسي شـحنة حرارية سرت في جسدي، سـألتها بنوع من التهكم: - لم أكن أعلم أن أختي التوأم تعرف لغة القطط؟ بأية مدرسة تعلمت هذه اللغة؟

رفعـت أناملها بخفة من خصلات شـعري، فبرد جسـدي على الفور، عادت وألصقت لون عينيها علـيّ، نظرتْ بأزرقها الفاتح إلى عيني، وقد تحول الأزرق الفاتح إلى أزرق غامق، لم تكن مبتسـمة، مع أنني توقعت أنها ستضحك من سؤالي هذا، وبدأت تتحدث لغة غريبة وعلى إيقاع عال من الجدية، وهذا بعض ما حفظت منها:

«.. **سـلمتي أبرمـان الكمنتبـق البيـة منـاع الكرسـيس البرمالي فـي المنمـال التمليـط الهرمينات السـيربي كمـالات بالنشسـترلفيط اللمنواليس..**»

تنمل جسـدي كله، وأنا أسمع ولا أفهم شـيئا مما تقوله أختي التوأم التي عشنا معا في رحم واحد تسعة شهور، ومنه خرجنا دفعة واحدة ولم نختلف يوما في شـيء، لا في الواقـع ولا في الأحلام، إلا مـرة واحـدة كان ذلك حيـن تفوقت علـيّ بحصولهـا على نقطة واحدة زيـادة عن علامتـي فـي الحسـاب، كان ذلك ذات سـنة من سنوات المدرسـة الابتدائية، هذه النقطة الفاصلة بيننا هي سبب كل الذي حصل والذي سيجيئ.

سـكنتني حيرة من أمر لغتهـا الغريبة هـذه، أردت أن أقول لها

بأنني لست قط الساحة المهجورة، فأنا الأخ التوأم، وأن لنا لغتنا التي بها كبرنا وبها حلمنا أحلاما مشتركة بل متطابقة، لكني ما استطعت، عُقِد لساني في فمي وأصبح كقطعة من خشب بارد أو مبلل، وشعرت بمثانتي ثقيلة ومملوءة تسللت من تحت الغطاء وسارعت إلى بيت الراحة حافي القديمين، كانت البولة طويلة وكبيرة، بعد أن أفرغت مثانتي شعرت براحة إذ تخلصت من شُمَيْسَة، وقررت ألا أعود إلى السرير حتى لا أجدني في مواجهة لغة أختي الغريبة، لكنِّي إِذْ فتحت باب المرحاض وجدتُها إزاءه تنتظرني، كانت ضاحكة، وقد غيرت لسانها وعادت إلى لغتنا المشتركة التي بها عشنا معا نتبادل المواقع وسرد الأحلام التي نتقاسمها ويصحح الواحد منا للآخر نسيانه منها طوعا أو جبرا.

قالت لي وهي تنظر إلي وقد أثارتني زرقة عينيها: سأعلمك لغة القطط، إنها بسيطة وشاعرية وأكثر تعبيرا عن الأشياء الملموسة والأرواح المجنحة، إن تعلمها أيسر وأسرع من تعلم اللغة العربية، تلك التي تعبنا في حفظ قواعد نحوها وصرفها وإملائها سنوات وما زلنا نخطئ حتى الآن في طريقة كتابة حرف الهمزة الذي لا يثبت في مكان وكذا حرفي الضاد والصاد التي تختلط مرات كثيرة بالسين.

لم أنزل نظري من عينيها، فزرقتهما المائية تشبه قطعة من السماء، تركتها وانسحبت إلى الحمام كي أغسل وجهي بماء صاقع علني أقاوم رغبة النوم المستبدة بي ليلا ونهارا، ثم تسللت إلى المطبخ لتحضير فنجان قهوة مزة، وحين التفتُّ وجدتها، كعادتها، لاصقة بي، فجأة قلت في نفسي متسائلا: لماذا لا أتعلم أنا الآخر

لغة القطط؟ أعجبتني الفكرة، لكني ترددت في طرحها عليها، لكن دون أن أتفوه بكلمة قالت لي وكأنها قرأت ما يدور في خلدي: عليك يوما ما أن تتعلم لغة القطط، إنك بحاجة إلى تغيير لون عينيك وإنك بحاجة إلى فهم العالم على طريقة غير التي تفهمه بها الآن. كانت جادة في حديثها.

واقتنعت بفكرة ضرورة تعلم لغة القطط التي هي أسهل من اللغة العربية وهي القادرة دون غيرها على مساعدتي لقراءة وفهم جديدين للعالم، خاصة وأن كتاب «تفسير الأحلام» لابن سيرين بدأت تتعبني ألغازه، وحدها لغة القطط قادرة على مساعدتي على فك رموزه. ربما.

وضع الفنجان على الصينية النحاسية وقبل أن أسحب رشفة منه واصل حديثه: إن القط غاتا...

وقفز القط من حجري وقد أصيب بذعر وهو يسمع اسمه على لسان هذا الرجل الذي يشبه والدي.

ثم قال لي: بالمناسبة، ما اسم قطك هذا.

سكتُّ.

obeikandl.com

16

الكذب الأصلع

كنت أريده أن يواصل سرد حكاية أخته شُمَيْسَة مع قط الساحة المهجورة الذي هو الآخر يسمى غاتا، لكني شعرت بأنني فقدت صوتي، حين تفقد مغنية صوتها فكأنما فقدت عقلها أو عذريتها.

أخرج ورقا شفافا مدده بين أصابعه المملوءة بالخواتم غير المتجانسة الشكل واللون من فضية وذهبية أصلية ومشلَّلة بالذهب من عيار 18 قيراطا، من علبة معدنية بيضاء دائرية الشكل وبحركة تشبه حركات الساحر سحب بين رؤوس أصابعه كميةً من تبغ ذي رائحة منعشة، أفْردَه على الورق ثم برمه وألصق أطراف الورق بلعابه وذلك بأن مرر عليه لسانه الذي بدا لي كبيرا ومنتفخا، أشعل سيجارته، سحب منها نفسا واحدا وهو يراقب ثبات النار على طرفها، ثم دون أن يسألني قدمها لي، قبل أن أتناولها من

obeikandl.com

يده، نظرت إلى غاتا كان في حيرة لم ألاحظها عليه قبل اليوم، مسحت بيدي عليه ولكنه ظل غارسا نظره فيّ، سحبت نفسا ثم آخر من السيجارة، شعرت بارتخاء في بصلتي السيسائية، وبدا لي الرجل الثعبان شبيها بقط أخته الذي كان يرافقها ويؤنس وحدتها في ليالي الساحة المهجورة إلا من السكارى. شعرت بمتعة حرارة السيجارة وهي تلسع أطراف أصابعي ولم يبق منها إلا فتاتا، حين سحبت النفس الأخير لاحظت بأن غاتا الجالس بحجري هو الآخر كان يحاول أن يغرق أنفه في غيم الدخان الخارج من فتحتي أنفي ومن فمي بشراهة. نظرت إلى القط ثم تساءلت: لماذا لا أتعلم أنا الأخرى لغة القطط وأحاور الليل والنهار غاتا؟ سكنتني الفكرة وتمنيت أن ينهي الرجل قصة أخته وأن أسمع نهايتها قبل أن يندثر من هذا الوجود من كثرة النكاح.

أخرج ثانية ورقا شفاف، وكما في المرة السابقة وبذات الحركات التي تشبه حركات الساحر الفاشل، برم سيجارة أخرى، وبدأ في سحب أنفاس منها بشراهة وقوة، دون أن يتكلم ودون أن يرفع عينيه من على القط غاتا الجالس بملوكية في حجري، ثم سحبني إلى الأريكة ومارسنا الجنس بعنف ثلاث مرات فوقها حتى جغجغت مفاصلها ومفاصلنا أيضا، من جراء ذلك نقص طول الرجل بعض السنتمترات وزاد في قضيبه بعض السنتمترات، كنت أرفض أن أمارس الجنس أمام عيون غاتا، بمجرد أن أقترب من اللحظة الحاسمة برفق أحمله وأضعه فوق السرير إذا كنا سنفعلها فوق الأريكة وأضعه فوق الأريكة إذا ما كنا سنرتكبها على السرير. كان يدرك هذه اللحظات يقرأ فيوض الشهوة في عيني ويفهم

قصدي من عزله بعيدا عن منظرنا الجنسي المجنون.

عدنا إلى الحديقة بعد ثلاثٍ، جلستُ منهكة، فرحا قفز غاتا إلى مكانه في حجري وبدأت يتشمَّمُني وكأنما يتشمم عطر الجنس الصاعد في عَرَقي وتنفسي، رفع نظره إليّ وكاد أن يتكلم وكدت أن أكلمه إلا أنني صُدمت بجهلي لغة القطط، مرة أخرى لم أتجرأ أن أطلب من الرجل مواصلة سيرة حياة أخته التوأم كما يدعي، ولكن فضول تعلم لغة القطط تكرس أكثر وأكثر في داخلي، وربما هو ما جعلني أشعر بارتباط أكثر بالرجل الثعبان الذي يتناقص طول قامته ويطول قضيبه.

كان القط غاتا ينظر إلى الرجل وكأنه ينظر إلى حبة سردين، وبدوره كان الرجل لا يرفع عينيه من على غاتا، وضع رأسه بين يديه ثم قال: – هذا القط يشبه تماما القط الذي كانت تكلمه أختي شُمَيْسَة.

ثم سكت، خفت أن يقول لي وبلغة القطط التي يتقنها ربما أحسن حتى من العربية لغة القرآن: – إنكِ أختي.

ثم يضيف دون أن ينزل نظره من زرقة عيني غاتا: – أجمل زوجة للابن هي أخته، لو لم يكن الدين قد حرم ذلك، كانت أمي تُرَدِّدُ ذلك باستمرار كلما سمعت عن خلاف بين زوجين.

أنظر إليه وأجد فيه الكثير من أخي الذي لم أعد أتذكر ملامح وجهه من كثرة اهتمامي بملامح وجه والدي، صحيح أنهما كانا يتشابهان، في الطول والضحكة وأسارير الوجه وكذا حفرة الزين المرسومة على وسط الخد الأيمن.

جلس الرجل قبالتي ثم شرع في قص أظافر رجليه بقصاصة

أخرجها من علبة جلدية مرسوم عليها علمٌ صيني، دون أن يرفع نظره وهو منهمك في التقليم، قال لي وكأنما كان يتحاشى مواجهة نظرات غاتا التي التصقت به التصاقا: - نسيت أن أحكي لك ما تبقى من سيرة سُمَيْشة.

أجبته وكأن الأمر ليس مهما بالنسبة لي: - الأقدار تصنعنا ولا نصنعها، قلت ذلك دون أن أرمي إلى شيء بعينه.

الرجل له عادة غريبة، يحافظ عليها منذ سنوات، فهو يقلم أظافره مرة كل نصف شهر، ولا يقوم بذلك إلا أيام السبوت، لماذا السبت وليس غيره من الأيام، لا أحد له تفسير لذلك، حتى الرجل لا يعرف لماذا يقلم أظافره يوم السبت، ولا يعرف لماذا لا يقلم أظافره في يوم غير يوم السبت.

حين أنهى قص الأظافر، أعاد القصاصة إلى علبتها الجلدية ثم قال لي: - قصاصة الأظافر هذه هي من الأشياء العزيزة عليّ والتي تعود لأختي، هي أهم ما ورثته عنها وأحرص على إبقائها كما تركتها لي، وربما عادةُ تقليم الأظافر أيام السبوت تعود إلى سُمَيْشة، مع ذلك لست متأكدا من أنها كانت تقوم بذلك يوم السبت فقط؟ أذكر أن خروجها الأخير كان يوم سبت ما في ذلك شك، فقد قلمت أظافرها، بل إني ساعدتها في ذلك، كانت الساعة قد تجاوزت العصر وغبش الليل بدأ في السقوط من سماء شبه مغيمة أو حزينة، ومع أن أمي التي لم تكن متدينة في سلوكها ولم تكن تقيم الصلوات لكنها كانت تخاف السماء، لم تكن لتكف عن تنبيهنا إلى عدم قص الأظافر ساعة العصر، لأن قصها في هذه الساعة هو تقطيع لحم الشياطين التي تفضل النزول من السماء

قبل ساعة المغرب لتسكن بين أصابع أرجل النساء الجميلات التي تعبق منها ما يشبه رائحة «مجاري المياه» (هكذا كانت تقول أمي وتكرر كلامها عشرين مرة! ومع ذلك لا أحد كان يسمع كلامها المخيف)، خرجت أختي عصر ذلك اليوم، أو على الأصح مغرب ذلك السبت، بعد أن رشت عنقها بعطر أمي المصنوع من الخزامي وهي نبتة برية عطرة كانت تصر على غرسها وسقيها عند مدخل البيت الكبير وعلى قبور بعض أفراد العائلة في مقبرة القرية، خروجها معطرة وتلك ليست من عادتها أثار قلقا على وجه أمي وكأنما كانت تقرأ نزول شيء ما من هذه السماء المغيمة الكئيبة، كنت أريد أن أتبعها على الفور لكن قلق أمي عطل من خطوي، كأنني كنت أنتظر منها أن تأمرني بفعل شيء ما، حين انتبهت بأنني تأخرت عن اللحاق بأختي وقد أدركت أمي قلقي قالت: - لا تقلق إنها النهاية، لقد تعطرت بعطر القبور.

لم أفهم ما رمت إليه أمي بكلامها الهادئ والحزين والذي فيه بعض الراحة والاطمئنان، وكأنها كانت تنتظر وتتمنى هذه الساعة، ساعة عطر القبور. صحيح، لقد أصبحت أختي ثقلا وهاجسا كبيرين على أمي خاصة بخرجاتها الليلية التي تقضيها صحبة القطط والسكارى. لحقتُ بأختي شُمَيْسة، وجدتها كعادتها جالسة على مقعدها تحدث القط وهما يضحكان.

قالت أختي للقط: - لقد قررت أن أذهب معك.

أجابها القط: - إنني حضرت لكِ سكنا وفراشا ومركبا.

شُمَيْسة: - أنا سعيدة أن أغير مقامي هذا بمقام تكون فيه القطط هي صاحبة الشأن والقرار، لقد جن هذا العالم الإنسي.

القط: – لم تسأليني عن اسمي؟

شُمَيْسة: – الأسماء لا تحمل دلالات من بها تلتصق.

القط: – اسمي غاتا، أنا أنتمي إلى عائلة كبيرة ونبيلة، لقد عشت مدللا، وقد خرجت ذات ليلة والتقيت بقطة جميلة ضائعة من القطط التائهة فأحببتها، كان لها صوت رائع ومدهش وتغني بشكل مثير مما جعل القطط الذكور يقضون الليالي في المعارك طاحنة بينهم، كل واحد يريدها له، ومع أنني لم أدخل معركة واحدة من تلك المعارك، إلا أن شعري وكذا موهبتي في سرد حكايات ألف ليلة وليلة عليها، حكايات سمعتها وحفظتها من فم رب الأسرة التي كنت أعيش فيها، إذ كان يحكيها لابنته التي تسمى هديل وأنا بحجرها، حتى أنني كنت حين يخلو البيت من سيده أعيد الحكاية على مسمع هديل مرة ثانية لأنها كانت تريد أن تسمعها من حبالي الصوتية أكثر من سماعها من أبيها الذي كان له صوت خشن كأنما صنع للأمر والنهي، وهكذا كانت هديل تستسلم للنوم بمجرد أن يشرع والدها في سرد القصة التي يقرأها من صفحات كتاب كبير مزوق تزويقات مثيرة في شكل صور نساء عاريات بأفخاذ بيضاء مشحمة ورجال بأعضاء جنسية منتفخة وكبيرة وغلمان يحملون كؤوس شراب خمر وأطباق فواكه من كل نوع، وتتركني أتابع تفاصيل القصة إلى نهايتها كي أحكيها لها في قيلولة اليوم الموالي، وقد تعلمت الفتاة لغتي وتعلمت لغتها وأحبتني وأحببتها، حتى جاءت تلك الليلة التي قررت فيها أن أصحب معي إلى البيت القطة التي عشقتها وقد عانيت في الوصول بها إلى عتبة البيت ويلات القطط الذكور التي

كانت تتعارك فيما بينها وعيونها تتلصص علينا، حين قفزنا سور البيت وتسللنا من النافذة التي كانت تتركها هديل مفتوحة تحسبا لعودتي الليلية عند الفجر أو متى عَنَّ لي ذلك، أو متى اضطررت إلى ذلك وهذا تبعا للفصول ماطرها وصحوها حارها وباردها، حين قفزت إلى الصالون وتبعتني القطة وقد شعرت بها مرتجفة ارتجافة العاشقات والعشاق اللواتي والذين كنت أسمع قصصهم المكتوبة في كتاب سيد البيت الكبير، جلسنا على الأريكة التي كثيرا ما كان السيد يمارس الجنس فوقها مع الخادمة وقد رأيتهما عشرات المرات وأخبرت السيدة الأولى ولكنها كانت غبية لا تفهم لغتي، بل بمجرد أن كنت أحدثها تنظر إلي تعطيني بعض الأكل ثم تنصرف غير عابئة ولا مصدقة لما كنت أقوله لها عن خيانة السيد الأول لها مع الخادمة التي كانت كثيرة الشهية للجنس وكأن أصلها من أصول القطط، قبَّلت القطة على فهمها مانعت في البدء وقالت لي: - إنني أسمع صوتا فهناك من أفراد العائلة من لا يزال مستيقظا، لكني قبلتها ثانية وقد شعرت بكهرباء الجنس يسري في مفاصلها فاستجابت وقد أغمضت عينيها ونسيت تماما بأننا فوق الأريكة التي يمارس عليها سيد البيت خياناتها مع الخادمة، وإذ ولجتها وقد استلذت فحولتي، وفي قمة النشوة صرخت صراخا عاليا أسرعت على إثره هديل إلى الصالون فوجدتني لا أزال راكبا القطة، فبكت وغضبت وقالت لي: - إنك تخونني كما يخون أبي أمي مع الخادمة ثم طردتني وهي باكية، من يومها غادرت البيت الكبير الذي عشت فيه مدللا أسمع حكايا ألف ليلة وليلة وأنام في حجر فتاة جميلة أتشمم عطرها ورائحة أعضائها الجنسية النظيفة

وفضلت أن أتبع القطة التي عشقتها، ولكن حياتنا العشقية لم تطل إذ دهست سيارة عشيقتي ذات ليلة، حزنت كثيرا وقررت أن أقيم بهذه الساحة المهجورة أحكي للسكارى حكايات ألف ليلة وليلة ولكنهم لم يستطيعوا تعلم لغتي وفهم ما كنت أسرده عليهم لكنهم مع ذلك كنت أعتقد أنهم يعتقدون بأنني أقول شيئا ما مهما، إلا أن لذة الخمر فاقت لذة حكاياتي. وحين جئت أنتِ يا شُمَيْسة أدركت بأنك قادرة على فهم لغتي، بل مستعدة لذلك، شعرت بأنك في حاجة إلى سماع الحكايات التي تسيل جنسا وماء مباركا ! إنك تشبهين الفتاة التي أكلت الغيرة قلبها من قطتي التي انتهت تحت عجلات سيارة متهورة، تلك التي طوال ست سنوات رويت لها فيها آلاف الحكايات بعضها كنت أخلقه من رأسي وكثير منها كان مما كنت أسمعه من قراءة والدها من كتابه المجلد تجليدا ذهبيا والمزوقة صفحاته بصور نساء ورجال وغلمان جميعهم بعيون تتطاير جنسا وشبقا ولذة وإغراء وخيانات.

كعادتي كنت جالسا على كرطون، غير بعيد من أختي أسمع حكاية القط غاتا، وقد شعرت بأن أختي بدأت ترتجف مع أن الجو لم يكن باردا، أردت أن أتدخل لكني خفت أن تكتشف تجسسي عليها فتكرهني وتقاطعني وأنا الذي لا أستطيع العيش ولا النوم بدونها.

بنبرة فيها جنون الغيرة قالت شُمَيْسة للقط: – كما خان السيد زوجته البلهاء مع الخادمة وخنت أنت فتاتك مع القطة التي انتهت تحت عجلات السيارة ستخونني لأنتهي أنا الأخرى تحت عجلات سيارة يسوقها مجنون أو مخمور أو متهور. ثم قامت أختي،

وبهدوء غادرت الكرسي ذي الثلاث قوائم الذي كانت تجلس عليه وانطلقت في اتجاه الشارع، كان القط غاتا ينظر إليها بلهفة ممزوجة بحزن وهي تمشي على زوج نعل دون كعب، كانت تمشي كمن يمشي خلف جنازة أو في مقبرة بين صفين من قبور رخامية. أردت أن أتبعها ولكن النوم حاصرني ورمى بي في عسله أو ظلماته.

الغريب منذ ليلة خطوبة شُمَيْسة لم أحلم حلما واحدا، أنام مقدار نصيبي ونصيبها ولا أحلم، أشعر بي في النوم الطويل العميق كما ولو أنني رُمَيْتُ من عُلوٍّ في ظلمة بئر سحيقة دون قرار، أقوم من النوم متعبا وكأنني كنت في أداء عمل يدوي مرهق لأعود ثانية إليه، حين قلتُ لشُمَيْسة ذلك ضحكت مني، كان ضحكها عاليا، وقالت وقد لمع في عينيها ضوء غريب يشبه شرار عيني القط غاتا:

– انتهى الحلم بالنسبة للنائمين، لتعرف يا أخي يا توأمي بأنه في الوقت الذي حُظيتَ به أنت بقدر نوم التوأم، كان من نصيبي أنا الحلم التوأم، فأنا أعيش أحلامك وأحلامي في النهار والليل، لا فرق بين نور وظلام، بين عين مفتوحة وعين لا تُطْبَق، إنني أقضي أيام العمر، منذ أن قرأ الفقيه فاتحة الخطوبة، دون أن أفرق ما بين الحلم والواقع، الأشياء في تماس دائما، في تداخل.

غابت أختي عن الساحة المهجورة بعد أن أغضبها القط المدلل غاتا بحكاية خيانته للفتاة مع قطة ضائعة في ليالي القرية، وفي الصباح الموالي لم أجدها عند رأس سريري تلعب بشعر رأسي وتحك لي الفروة بحركات ناعمة مثيرة بأصابعها الناعمة، لم ترجع إلى البيت كما كانت تفعل مع كل آذان فجر بعد أن يغادر السكارى الطيبون الساحة المهجورة ويسكت القط الخائن الذكي

عن سرد حكايات ألف ليلة وليلة، ويصبح المكان دون حركة تذكر، من ذلك الغضب أو من تلك الغيرة التي أشعلها القط غاتا الخائن لم نعرف عنها شيئا. اختفت شُمَيْسة ومن ساعتها وأنا أنتظر رجوعها، دون رجاء ودون فقدان الرجاء.

لكني يا هديل اليوم إذ حلمت وهي المرة الأولى التي أحلم فيها منذ اختفاء أختي شُمَيْسة عاشقة القط غاتا أدركت أنها ماتت، أدركت أن سيارة مجنونة دهستها.

إنه أول حلم.

انتبهت هديل إلى الرجل الذي لم ينزل عينيه من على القط غاتا وهو جالس يستمع إلى حكاية شُمَيْسة والقط غاتا الآخر الخائن، وقالت له: - وما حلمك هذا؟

قال.

obeikandl.com

17

حج الخيانة

استفاق الرجل الثعبان الأنيق الذي ينقص طوله بعض الملمترات مع الانتهاء من كل عملية جنسية من منامه على شعور غريب يتمثل في غيرة غريبة يثيرها فيه هذا القط الجالس دوما وبملكية في حجر هديل، دوخه هذا الحلم وهو الذي لم يحلم منذ ليلة خطبة شُمَيْسَة، شعر به أطول حلم في حياته، فتح كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين، حاول أن يقرأ فيه قليلا لكنه أدرك بأن ما هو موجود لا يتعدى هوس كاتب متأثر بألف ليلة وليلة، كاتب ضائع ما بين الفقه والسحر والشعر والكذب على النساء المغفلات، قفل الكتاب ونظر إلى السماء التي كانت شبه زرقاء وكأنها استمرار طبيعي للون عيني القط غاتا المدلل الناعم المتربع على حجر هديل، غير بعيد عن مركز اللذة والشبق فيها.

الصباح في الخارج عادي جدا، بعض الطيور معلقة كعادتها

obeikandl.com

في أغصان شجرة البلوط العتيقة قبالة الدار، قوافل النمل في ذهاب وإياب على جذعها الهرم المشقق، تتسلقها من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى دون توقف، نظر الرجل إلى هديل وهي لا تزال ممددة على الأريكة التي مارسا الجنس فوقها، جلد هذه الأريكة يحرك الرغبة بشهية منقطعة النظير لأنها، كما قال له البائع المحترف، مصنوعة من جلد الضبع، والضبع حيوان يمارس الجنس حتى مع الجيف، مد يده تناول الإزار الأبيض الحريري الخفيف الذي سقط على الأرض عند قدمي الأريكة وغطى جسدها شبه العاري، لأول مرة ينظر إلى هذا الجسد المليء بالرغبة ولا يثير فيه شهوة الممارسة الجنسية، لم تتحرك هديل من عسل نومها، استدارت قليلا إذ شعرت بنعومة الحرير من فوق كتفيها ثم عادت لهدوئها.

التَفَّتْ هديلُ في إزارها وسال جسدها مرمرا أمام أولى حزمة أشعة الشمس المحتشمة القادمة من النافذة القَبْلية الواسعة، بدا النهار من ساعاته الأولى رطبا كثيف الغيوم.

أحكي لكِ وللقط غاتا الحلمَ الأول بعد أَنْ لم أحلم منذ خطوبة أختي شُمَيْسَة:

قال:

.. ورأيتُ، كنتِ يا هديل بين ذراعي عاريةً إلا من الشهوة والجمال والفتنة، لم تكن الليلة لا ربيعية ولا صيفية، فيها مارسنا الجنس ثلاث مرات متتالية بجنون عال حتى مطلع خيوط ضوء الفجر الأولى، كانت أنفاسنا وشبقنا على إيقاع واحد أوحد، كنا نعزف على آلة واحدة بأربعة أيدٍ ! كنتِ على السرير قمرا إذ اختفى

القمر من السماء فجأة ليفسح المجال لقمر أكبر، قال هذا ربي هذا أكبر، احتضنتك عارية منهكة من متع الشبق وبركاته، لاعبتِ شعر عضدي قليلا وأنت التي أناملك الرقيقة تحب اللعب بالشعر النابت على جسدي، كذا في الحلم، وعلى لحيتي التي تعودتُ منذ سنوات تركها دون تشذيب لأربعة أيام متتابعة، كنت تفضلينها هكذا متوحشة، غرستِ أنفك في شعر صدري الذي تتشممينه بين الحين والآخر وكأنما تفتتين رمانة الروح الصاعدة من الأنفاس، ثم استسلمت للنوم، دفنتِ رأسك في صدري وأنت كما عادتك متجردة إلا من إزار حريري خفيف هفهاف يستر قليلا من مرمر جسدك، كذا في الحلم، نظرتُ إليكِ وأنتِ في هذا البذخ الإلهي وسلمتُ نفسي سعيدا لإله النوم، أطال الوقت بي أم لم يطل؟ الله أعلم بذلك، وإذا بي أسمعُ هاتفا في أذني، صوت كموسيقى هبوب ريح رحيمة تصفر دون نذير، فتحت عيني في ظلام الغرفة، نظرت إليكِ كنت قطعة من فتنة بين ذراعي، بين الصحو والغفو، أجِدُني أمام شعلة من نور رباني، كذا في الحلم، حتى كاد أن يغشى على بصري.

حاولت أن أرد عليك الإزار الحريري كي أستر كنوز عريك أمام هذا الانكشاف الضوئي الخارق، لكن يدي تجمدت وما استطعت إلى ذلك سبيلا، غرقت الغرفة وغرقنا في نور إلهي عظيم، كما في الحكايات الساذجة، ولم يكن ما أرى حكاية، فالمشهد حقيقي ولا مجال للتخريف، وإذا من شعلة النور يطلع صوت يقول: - أنا رسول الله، أنا خاتم الأنبياء والمرسلين. ثم تجلى واقفا عند رأسينا، كان جميلا، أبيضا في أبيض، مستدار

الوجه كالقمر كما كانت تصفه جدتي التي عاشت عمياء وولدت كذلك والتي كانت تقول إنها لم تر من الدنيا غير وجه الرسول، مبتسما كان، وإذ رأيته مددت يدي ثانية كي أستر عريك، عيبٌ عريك الفاضح هذا في حضرة رسول الله، وحين هممت بمد يدي كي أُلُفَّ جسدك في الإزار الحريري الذي أصبح لونه ذهبيا من انعكاس النور عليه، وكما في المرة الأولى تجمدت ذراعي وما استطعت إلى تحريكها سبيلا، وأنت عارية، فتنة، غواية تحت نور كاشف لكل الدقائق والرقائق،، كذا في الحلم، شعرت بجو الغرفة ساخنا أو على الأصح لم يكن باردا، عرق بارد سال على عنقي، وعلى الرغم من رهبة الموقف إلا أنني شعرت بغيرة تشبه تلك التي كان يثيرها فيّ حضور صديقك الجامعي مُومُو أو محند، ثم استدركت وقلت: – عفوك يا رب هذا رسول الله أعظم الخلق وخاتم النبيين والمرسلين.

رفعت عيني إلى الشعلة الشعشعانية التي كان يتوسطها أو يركبها الرسول وهي على شكل قوس قزح أو ظهر فرس بجناحين، براق، كرة من نور ربانية عجيبة ومثيرة، لم يتنازل عن ابتسامته ولم يخفها والتي أبانت عن فلجة بين أسنانه المصطفة في فمه ببهجة وجمال نادر وهو ما زاد من غيرتي وحرك إيماني بالله في الوقت نفسه،، كذا في الحلم، كان ينظر إليكِ وأنت في نومك ممددة شبه عارية، بل عارية تماما، لم تسقط عينه عليّ، كنتُ في هذا الوجود غير موجود، وشعرتُ به كأنما نفسه النبوية الكريمة كانت تشتهيك، كأنما نفسه النبوية ترغب فيك، لا يرد للنبي طلب مهما كان الطلب.

انتظرت قليلا، أغمضت عيني، أغمضتهما لوقت لا يعلمه إلا هو، أغمضتهما لست أدري أَمِنْ جراء قوة الضوء الذي تجلى أم لأنني لم أرد إحراج رسول الله في عينه ولا جرحه أو تجريحه في ابتسامته التي لا تشبهها ابتسامة،، كذا في الحلم، ثم قمت وقد اختفى النور الشعشعاني، بحثت عنكِ وقد اعتقدت أن رسول الله قد اصطفاك حورية من حوريات الجنة، وأنك في عالم غير هذا الذي أنا فيه، ولكني إذ وجدتك ملاكا في نومك، هادئة، عارية، فم ساحر مغر للقُبَلِ ينام أو يحاول أن يصحو على ابتسامة نهار جديد لم أستطع أن أستر فتنتك، بل لم أتجرأ على ذلك، تركتك كما أنت في نومك المدهش وجمالك العالي، دخلت الحمام توضأت الوضوء الكبير ثم صليت ركعات صلاة الفجر على عجل وبمفاصلي رجفة عميقة كأنها الحمى الباردة، وأنا الذي لم أصل في حياتي يوما فعلاقتي بالصلاة علاقة مناسبات، فأنا أصلي العيدين وصلاة جنازات بعض الراحلين من الأهل والأصدقاء.

ارتبكت في السجود كما في الركوع ارتبكت، غفرانك ربي، أربكني صوت مؤذن الفجر الذي صوته بدا لي شبيها بصوت مُومُو غريمي فيك يا هديل وكاد أن ينسيني وقفة رسول الله وخاتم الأنبياء محمد عليه الصلوات والتسليم.

على قلق، ما بين نور الرسول وصوت الغريم وجسد هديل العاري في فتنته الكاملة، فرغتُ من الصلاة، سلَّمتُ، ثم قررتُ، لست أدري كيف ولماذا، أن أذهب إلى زيارة قبر الرسول، لم يكن الواجب الديني هو الذي يناديني فأنا لست رجلا متدينا، عفوك يا رب.

اختارنا الرسـول لكي يقف علينا في المنام بنوره الشعشـعاني، وتلك علامة الصفوة، فكان عليَّ أن أقف عليـه في قبره الكريم، أن أرد له الزيارة وأكرمه بما رأت نفسي أنه اشتهاه.

كان علـيَّ أن أجيء بك إلى مقامه المشـرف، كما إبراهيم جاء بابنه إسماعيل أو أسحاق، تلك خلافات بين أبناء العمومة، لا يهم، مثل إسماعيل كان عليّ أن أقدمك على نصب الفداء.

وسمعتُ، كذا في الحلم، تعليقات من كثير من نساء الحي:

قالـت واحدة: - بعد حيـازة هديل لـذة الدنيـا ومتعتها ها هي تحـوز شـرف الديـن وتطمع فـي نعيـم الآخـرة إلـى جـوار الأنبياء والصحابة والصالحين من ذوي الكرامات.

.. وقالت ثانية: - الدنيا حظـوظ، أخذت رجال الدنيا وها هي تزحف على الآخرة لتسكنها حورية تخطف المؤمنين في الجنة.

.. وقالـت ثالثـة: - إن حـظ المـرأة يكتـب لهـا فـي موقعيـن حساسـين من جسـدها، إما بين النهديـن أو بين الفخذيـن وما عدا ذلك فبهتان، والله أعلم.

ضحكت هديل، عدلت من جلسـتها على طرف الأريكة ذات جلـد الضبع وغاتـا فـي حجرها ثـم قالـت: - لا تتعب نفسـك في التذكر سأكمل حلمك بتفاصيله وأقص عليك رحلة الحج بدقائقها، سـأقصها عليك بأمانة كما كانت تقص عليك أختك التوأم شُمَيْسَـة أحلامكما المشتركة.

لم يسـتغرب الرجل أمـر الحلم المشـترك، وهـو الحلم الأول الذي يعيشه بعد أن غابت عنه الأحلام منذ اختفاء شُمَيْسَة.

قالت هديل:

«... كانت الكعبة الشريفة هي المقام الأول لزيارتنا،، كذا في الحلم، كنتُ في لباسي الاسلامي الأسود الذي اقتنيتُه من حي المدينة الجديدة أكثر جمالا وفتنة، نظرتُ إلى نفسي في المرآة ونحن نَهُمُّ بمغادرة فندق «فلسطين» الذي أقمنا فيه غير بعيد من الكعبة، فإذا بي أستعيد لحظاتي وأنا أطارد مُومُو عازف العود حتى قاعة الصلاة بالمسجد حيث كان فيه مؤذنا مرتدية ذات اللباس الذي أرتديه اليوم وأنا على بعد أمتار من الكعبة المشرفة، نظرتُ ثانية إلى قدي المنتصب في المرآة، ثم لعنت الشيطان مرات إذ وجدت نفسي أفكر في مُومُو المؤذن وعازف العود وقد شدني حنين عارم إليه وإلى مطعم أرتور رامبو ورغبة جارفة إلى رائحة طبخ شهيرا أم خوسي وإلى أريج قهوتها المفلفلة وإلى غاتا القط المدلل، وحين تفرستُ وقفتي في المرآة الكبيرة الموجودة عند مدخل الفندق لاحظتُ عين الرجل ذي الكرش المندلق والمشرف على الاستقبال تأكلني، فانسحبتُ بسرعة إلى الشارع حيث صراخ الباعة المتجولين من الهنود والباكستانيين والمصريين واليمنيين وأقوام أخرى بلغات متعددة، كذا في الحلم.

نظرتُ إلى الشارع الذي يصعد مباشرة من الفندق وحتى باحة الحرم المكي العامر بالخلق فاستغربتُ أن يكون المكان الذي ولد فيه الرسول، والذي إليه يجيء الناس حجًّا من كل فج، على هذه الفوضى وبهذه الأوساخ المتناثرة والمتراكمة على الأرصفة. لعنتُ الشيطان ثانية إذ طاردتني صورة حي المدينة الجديدة بوهران واستعدتُ حركاتي الشيطانية تجاه ذلك السائق الذي طاردني فاختفيت له في اللباس الإسلامي وسرتُ بجواره دون أن ينتبه إلى

وجودي، كذا في الحلم.

لم تكن صورة مسجد الحرم المكي، إذ قابلته أول مرة، غريبة عليّ، فهي الصورة الأكثر حضورا في الأماكن العمومية والعائلية بعد صورة رئيس الجمهورية، نجدها معلقة وبأشكال مختلفة في المساجد والمدارس والحمّامات ومقرات الأحزاب ومكاتب المسؤولين من الدرجة الأولى والثانية وعلى زجاج الحافلات العمومية وسيارات الأجرة والسيارات الخاصة وفي الأسواق والمطارات وصالونات الحلاقة وبيوت الأصدقاء المؤمنين منهم كما الزنادقة، دخلنا الحرم المكي من باب السلام وهو أول باب بني لهذا المقام الزكي كما قال لنا أحد الحجاج، صلينا صلاة التحية، ثم رفع آذان الظهر، وإذا هذا الصوت يذكرني مرة أخرى بصوت مُومُو أو محند فيشعل في نار الوحشة وأنا على بعد أمتار من أستار الكعبة أكرم بيت وأشرف مكان، كذا في الحلم، لعنتُ الشيطان وما كان له أن يرحل من رأسي، وسواسا يقيم في التفاصيل ولا يتركها، قلتُ في نفسي: إن الشيطان قد تبعني حتى أعتاب الكعبة، فأنا بيته، بيت الشيطان يجاور بيت الله الحرام.

ثم كان طواف القدوم، وحين شرعتُ في الطواف حول الكعبة سكنتني فجأة عَبْرة، رفعت صوتي بالدعاء إلى الله الذي يبدو من هذا المكان قريبا جدا إلى القلب وإلى العين حتى نكاد نلمسه باليد، وحين صعد صوتي بغنته، وقد بدا جميلا أكثر مما كان عليه في مطعم أرتور رامبو، توقف الحجاج عن طوافهم إذ سرى صوتي العجيب في سماء المكان، وتوقفتْ أسراب الحمام أبيض اللون عن نقر الحبوب المنثورة له في الباحة القريبة

والموجودة على حفافي صحن الكعبة المشرفة، سلالة حمام استوردته المملكة من بلاد الشمال البعيدة ليعوض تدريجيا سلالة الحمام الأزرق والأسود الذي كان لونه هذا يفسد قليلا من بهاء المدينة المكرمة، كذا في الحلم.

في البدء توقف الحمام عن التناغم والهديل إذ نبستُ بالدعاء. ثم شرعت أسراب الحمام الأبيض الواحدة بعد الأخرى تنزع عنها ريشها لتتحول جميعها بقدرة قادر، وفي رمش البصر، إلى نساء جميلات جئن للصلاة على مقام إبراهيم عليه السلام، يرتدين نفس اللباس، سبحان الله الذي لا إله إلا هو، كذا في الحلم.

ثم بعد الحمام الأبيض الذي مسخ نساء جميلات، فجأة، توقفت حركة الطواف لبعض الوقت، من حول المكان الشريف إلا من بعض الرجال الذين يبدون أنهم مصابون بالصمم فقد واصلوا طوافهم.

فتن الجميع بسحر صوتي الخارق، لقد فَتَنَ هذا الصوتُ على المؤمنين أمرَ طوافهم وأفتنَ عليهم دينَهم وهم بين يدي الله وفي أعظم وأشرف بقعة إسلامية،، كذا في الحلم، ودون سابق إنذار بدأت حركة الحجاج وهم في طوافهم تتحرك في الاتجاه المعاكس أي من اليمين إلى اليسار، وهو ما جعل رجال أمن المملكة من المسلمين يصابون بدوخة وما استطاعوا لذلك ردا، مما دفع القائمين على أمن الكعبة، وعلى الفور، دعوة حرس المكان من الأجانب المتخصصين في محاربة الفوضى والشغب يتدخلون ليعيدوا حركة طواف المؤمنين إلى الاتجاه الصحيح، أي من اليسار إلى اليمين، دون عنف يذكر، وقد استغفروا ربهم دفعة واحدة

وبدموع سخية ساخنة رفعوا أكف التوبة وطلب المغفرة، كذا في الحلم.

أكملتُ طوافي داعية السماء في صمت تام، وقد شعرت بالحرج وكأنني الشيطان الذي قلب المؤمنين وهم بين يدي ربهم وفي مكان بهذا القدر العالي من التقديس، وفجأة تذكرتُ كيف كان هذا الرجل الذي يشبه والدي، الذي يسير الساعة إلى جنبي، يقبل كفي أربع مرات بعد كل وصلة غناء في مطعم أرتور رامبو، ثم طردت الصورة من رأسي فهذا ليس مكان تجليها. الشيطان يسكن في تفاصيل النساء، كذا في الحلم.

وحين أنهينا شعائر الحج الصغير بمكة المكرمة، وقد استعجل الرجل الذي يتقاسم الحلم الواحد مع أخت له اسمها شُمَيْسَة الالتحاق بالمدينة المنورة حيث مقام قبر الرسول الكريم، كما استعجلتُ أنا الأخرى الرحيل عن هذا الفندق الذي ما فتئ صاحبه السعودي منتفخ البطن يلاحقني بعينيه في كل ركن منه في الصالون وفي البهو وفي المصعد ويبعث لي برسائل قبل الخروج وبعد العودة مع خدم تنظيف الغرف الذين لا يتكلمون العربية ومع سائقي سيارات الأجرة الذين غالبيتهم من فلسطين أو مصر أو السودان.

في كل هذه الرحلة وعلى طول المسافة ما بين مكة والمدينة، كان الرجل ساهيا، ساكتا، منشغل الفكر والخاطر، وكنتُ حين أسأله عن سر هذا الصمت وهذا السرحان، يفتح كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين ويبدأ في القراءة، فأخلي أمره وأحرره من أسئلتي الملحة، كذا في الحلم.

وفي ثنايا صمت الرجل، إن الله غفور رحيم، بين الحين والآخر كان مُومُو أو محند يتسلل إلى فكري ليخطفني من ديني ومن ربي ومن هذا الرجل الذي بدا لي قصير الطول أكثر فأكثر لا تكاد قدماه تصل زربية أرضية السيارة التي نمتطيها، كنا نقطع الطريق المبارك التي مشاه الرسول الأعظم في هجرته الكبيرة،... والشيطان يعيش في التفاصيل أو في رأس امرأة مثلي، كذا في الحلم.

الشيطان رفيق الإيمان.

وصلنا المدينة المنورة، دخلناها فجرا على متن سيارة أجرة رباعية الدفع برفقة سائق فلسطيني ماهر مثقف يكتب الشعر التقليدي ويحفظ ديواني حسان بن ثابت وفدوى طوقان التي يبدو أنه مغرم بها وبلباسها المتناسق، ويعرف الطريق ما بين مكة والمدينة بتفاصيله ويسميه حجرة حجرة، رملة رملة، شجرة شجرة.

وإذ دخلنا مدينة الرسول الكريم، استقبلنا صوت رخيم يرفع آذان الفجر فكان إيذانا بنزول الشيطان عليّ مرة أخرى فيذكرني بمُومُو أو محند وبصوته الذي لطالما خاطبني من أعلى المئذنة وهو ينادي الخلق إلى الصلاة مسبحا لله ورسوله، شعرت بأن بالرجل الذي يجلس جنبي في هذه السيارة يحاول جاهدا أن يوصل طرف رجليه إلى مستوى الزربية الموضوعة عند القدمين يعاني من إحساس غريب يسكنه، ونحن على بعد ميلين أو ثلاثة من قبر الرسول محمد عليه الصلوات، كذا في الحلم.

ونحن نجتاز شوارع المدينة المنورة في اتجاه الفندق الذي حجزنا فيه غرفة كان الرجل الذي بجواري يستعيدُ تفاصيل الذنب

الكبير الذي يعذبه لأنه لم يستطع أن ينقذ أخته شُمَيْسَة تلك الليلة وقد استسلم للنوم وضاعت هي في المجهول بعد غيرة من القط الذي خان الفتاة مع قطة ضائعة، كذا في الحلم.

في اليوم التالي لوصولنا، دخلنا الحرم المدني قبل ساعة من موعد صلاة الظهر، أسرع الرجل الثعبان خاشعا لزيارة قبر النبي وكنت أتبعه.

تقدمنا نحو القبر من الجهة الأخرى من المسجد ذي العمارة المتناسقة المدهشة التي ذكرتني بالعمارة الأندلسية الفخمة والعالية الذوق، وتحت سقف الحرم النبوي ونحن نقترب من شباك قبر الرسول، والرجل الثعبان لا يزال يحمل بين يديه كتاب ابن سيرين ويقرأ الفاتحة ويعيد قراءتها، أما أنا فقد بكمت أمام جمال الهندسة المعمارية للمسجد النبوي وقد وقفتُ في الطابور الذي انتظم لزيارة قبر الرسول.

فضل الرجل الثعبان أن يتركني أواجه قبر الرسول لوحدي وكنت أسمعه يقول في صمته: - ها هي لك يا رسول الله، قد جئتك بها من بلاد حيث تغرب الشمس، بلاد البربر، بلاد مرقد الصحابي عقبة بن نافع، إذا كانت لك فيها رغبة فهي لك يا حبيب الله، أنت أولى بالنساء الجميلات منا نحن أبناء الخطيئة، كذا في الحلم.

حين عدتُ، وقد لمحني الرجل الذي نقص من طوله بعض الشيء، من على بعد أمتار، أرفل في لباسي الأسود حافية القدمين، نظر الرجل إلي وكأنما هو يراني لأول مرة، أو لربما ما كان ليتوقع أنني سأعود، كان ينتظر اختفائي كما اختفت شُمَيْسَة أخته التوأم،

كذا في الحلم.

وحين لـم أختف كما اختفـت أخته المهبولة وقـد عدتُ أرفل في غنجي وجمالي وكان ينتظر اختفاءئي نهائيا كذب الرؤيا، ثم وإذ اقتربت منه، رأى نورا عجيبا قد كسـا وجنتيّ في شكل حمرة ربانية لا مثيل لها فلم يكذب الرؤيا. عدتُ وكأنما كنتُ على موعد غرام، كذا في الحلم.

علـى عجـل غادرنـا الحـرم النبـوي الشـريف وأنا أحـاول أن أسـتعيد شـيئا يخلصني من ارتباكي، فلـم أجد سـوى بعض ملامح صورة مُومُـو أو محنـد يرفع صوتـه من أعلـى المئذنة رسـالة حب إلى الله وإليهـا، وإذ فرغنا من طقوس الزيارة، دخلنا سـوق المدينة المركـزي للتسـوق وشـراء بعـض الهدايـا مـن أثـواب ومسـبحات ومناديل حريرية وخواتم وبعض التوابل والبخور...

ثم رجعنا إلى بلادنا حيث مغرب الشمس.

ومن يـوم عودتنا قرر الرجل الـذي يعيش بذنب أخته شُمَيْسَـة ألاّ ينام معـي على فراش واحد، عـاد لينام علـى الأريكة وقد غلف جلدها بغطـاء صوفـي حتـى لا يهيج جلـد الضبـع رغبته الجنسـية فيهجم عليّ ويخون الرسـول الذي اشـتهاني كما بدا لـه في الحلم واستفردتُ صحبة القط غاتا بالنوم على السرير الواسع. كلما تسلل الغطـاء الصوفي عـن الأريكـة ولامس جسـده جلد الضبـع يجيئني لاهثا في منتصـف الليل محاولا أن ينعم من فواكه بسـتان جسـدي فتتجلـى له صورة رسـول الله واقفـة في الحلـم ناظرا إلـيّ وأنا في كل جمالي المثير فيتراجع، يصلي عند قدمـيّ ركعتين ويقبلني على يدي كمـا كان يفعل في مطعم أرتـور رامبو ثم يعود إلـى نومه على

الأريكـة بعد أن يسـتر جلد الضبـع جيـدا بالغطاء الصوفـي حتى لا يلامس جسده ويعيد قراءة بعض صفحات من كتاب ابن سيرين.

سـكتت هديل عن سـرد بقية الحلم. كان الرجل الذي ما عاد يشبه والدي ساكتا وقد سكنه ذنب آخر، ما عادت بلسانه قدرة على حـراك، كان ينقل عينيـه الباردتيـن المطفأتين مـا بين هديـل والقط غاتا.

نظرت هديل إليـه ثم قالت وقـد تغيرت نبرة صوتهـا: هذا هو حلمك، أليس كذلك؟ ما كنـتُ أظنُّ أنك سـتصحبني يوما لتهديني لرجل غريب حتى ولو كان رسـول الله، هذه خيانة حتى ولو كانت في المنام.

حملت هديـل غاتا فـي حضنهـا، نظرت إلـى الرجل بأسـف، وانسحبت منتعلة حذاء دون كعب، نفس الحذاء الذي كانت ترتديه أخته شُمَيْسَـة سـاعة اختفائها من السـاحة المهجورة وغابت خلف الباب حيث بدا اليوم كثير الغيوم التي تشبه الظلام.

obeikandl.com

18

باب انتظار الساعة

مْليحْ لَمْلاحْ مَالُو يا رَبِّي مَالُو، شَوَّشْني حَالُو.

الحمد لله الذي جعل اللذة تصعد من بين الريق والمبسم، ومن بينهما تصعد نار الشبق التي عليها ولها ومن أجلها جاءت جميع الديانات السماوية والطوطمية والشيطانية، وحولها ولها اندلعت الحروب الصغيرة والكبيرة فمات ناس كثر وأهرق دم عزيز فكان الشهداء وتعادى الإخوة وتكارهوا وغدر الابن بأبيه والعم بأخته وهجرت الزوجة فراش زوجها وابتغت له بديلا حراما دافئا وسريرا هنيا.

لأيام بكيتُ، كدتُ أجن، كَرِهْتُني، أول ما فكرتُ فيه، بعد أن فقدت، وفي أيام قليلة، من بهائي قسطا وافرا ولم يبق في حجري سوى القط غاتا، وسكنتِ الكآبةُ جفنيّ، فكرتُ أن أترك هذه المدينة وأعود إلى بيت والدي الذي به ولدتُ وتربيتُ وفيه سمعتُ جُمل الغزل الرقيقة الأولى التي كان يغمرني بها ابن عمي في السر هروبا من عيون الأهل، جُمل كانت تُبيتني في أرق مدهش، ابن عم نسيت حتى اسمه، أذني على جهاز المذياع الصغير المربوطة إلى

ظهره بشـريط مطاط أبيض بطاريةٌ عريضة عليها صورة أسد متهيج، أستمع إلى أغاني أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وجاك بريل وأستمع إلى موسـيقى الجاز حيـن أكون حزينـة أو غامضة الاحسـاس، وأنا أقرر العـودة إلى دارنـا الأولى كنت أريـد أن أعيـد دورة الحياة من جديد، أبعثرُ ما عشتُه على مدى ثلاثين سنة وأبْنيني من الصفر، أين هو الصفر؟ ضاع مني، الصفر هو حقيقة الإنسان.

قلتُ سـأعود لأبحث عن ابن عمي الذي نسـيت اسمه وأبادله غـزلا كنتُ أخـاف مبادلتـه إياه وهـو الخجـول مثلـي، أَجِدُني الآن مسـتعدةً كل الاسـتعداد لأتسـلق، دون تـردد أو خـوف مـن أحـد، سـطح الإسـطبل ليلا كي ألقاه هناك وهو علـى نار، تحـت النجوم المعلقة فـوق رأسـينا، وأمنحه كثيـرا من القبـل ومثلهـا يمنحني أو أكثر، وأتركه يلهو بنهدي كما كان يرغب ويمصهما كما كان يشتهي وألعب بخصـلات شـعره الناعم الـذي كان يفضـل أن يتركـه ينزل على كتفيه، وألامس قضيبـه فلا يخيفني انتصابه، كنـت أريد العودة للبحث عن محفظتـي أحملها على كتفي وأسـرع الخطـو على ذاك الطريق غير المعبد شـتاء بطميه وصيفـا بغباره دون تلكئ أو كسـل كـي ألقـى معلمي السـي عيسـى الـذي كنـتُ أهابـه واليوم سـألقاه دون خـوف وقد حفظـت عن ظهـر قلب قصيـدة «إرادة الشـعوب» لأبي القاسـم الشـابي، وقبلها قصيدة « الجداول» لإيليـا أبي ماضي و«الحمى» للمتنبي... سأنادي ابنة عمي الزهرة التي كان لها سالف أحمر اللون، لونه طبيعي دون صبغة حنـاء، والتي كانت تثير غيرتي بضفيرتيها المتدليتين حتى ردفيها الغامرين قليلا، سأناديها لنتحدث عـن فتيـان القريـة، عـن شـواربهم وقضبانهـم وشـعر صدورهـم،

سترافقني لزيارة خالتي يامنة العالِمة التي تدمن تدخين نوع من التبغ تزرعه بيديها في شكل مربعات منظمة تشبه أحواض النعناع على السطح الترابي لمنزلنا الكبير، وتحفظ القرآن من ألفه إلى يائه، لا نظير لها في ذلك، تتبارى مع الرجال الحفظة فتغلبهم واحدا واحدا، لم يهزمها رجل في ترتيل كتاب الله أو في الحديث النبوي كما هو مثبت في صحاح البخاري رضي الله عنه وأرضاه، وحده فقيه القرية كان يتحاشى التباري معها، ففي كل مرة تطلبه للمباراة كان يطردها من الجامع قائلا للحاضرين إنها على حيضها ولم تكن كذلك في كل مرة، كانت خالتي مؤمنة بالله والرسول إيمانا مطلقا لا يدخله شك، حين تجيئها الدورة الدموية تتوقف عن قراءة القرآن ولا تمس المصحف الشريف أبدا ولا تقرأ في صحيح البخاري الذي بدأت في نسخ نسخة جديدة منه بيدها وهي السابعة كما تقول، تنسخه غيبا دون العودة إلى الكتاب الأصل، ولم تخطئ يوما في كلمة أو همزة، حين تجيئها العادة الشهرية تغتنم هذه الفرصة السانحة فتغرق في قراءة الشعر، تقضي أيام الدورة هذه في قراءة ديوان أبي نواس والمتنبي وعمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد وتقرأ في كتاب ألف ليلة وليلة ورسالة الغفران للمعري وطوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، كانت تقول لي ولزهرة ضاحكة: الحمد لله الذي أنعم علينا بأيام الدم هذه، فهذا الدم النازل ما بين فخذي هو نعمة وهبها الله لي كي يفرق بيني وبين كتابه بعض أيام حتى أرى الدنيا بعين أخرى، عين الشهوة، عين الشيطان، القلوب إذا كلت عميت، وتضحك وتقول لنا ما تحفظه من غلمانيات بشار بن برد وخمريات أبي نواس، كان الفقيه السي أحمد أو حمدان

رجلا محافظا خجـولا جاء قريتنـا من بـلاد البربر، من بلـدة تدعى الأربعـاء نايث إيراثن غير بعيد مـن جبال جرجرة، منـذ أن نزل بيننا ظل منعزلا، صامتا، لا يكلم أحدا، يُقرِئَ صغار القرية سـور القرآن الكريم ويعلمهم الأبجدية العربية على ألواح من خشب، نُطقُه اللغة العربية بلكنـة بربرية جميلة كان مثيـرا للعامة، لا يعـرف من العربية سـوى فصيحها بنحوه وصرفه، يصلي بالناس الجمعات والجنازات والأعيـاد ويقيـم بهـم صلـوات التراويـح أيضا أيـام شـهر رمضان، يحضر فاتحات الزواج وولائم الختان.

منذ أن جاء القرية مُعلِّمَ كُتّاب، قيِّما على شأن الجامع الصغير لم يتخط أسـوار القرية وقد مضى على ذلك أحد عشر عاما ونيِّف، وكانت خالتي يامنة تقول وهـي المرأة التي لها الفِراسـةُ، لا تخطئ أبدا في قراءة الأشخاص وتقييمهم التقييم الصحيح: إن السي أحمد أو حمدان نائمٌ علـى قصة غريبة تفاصيلها لو عُلِمـتْ لزلزلت قريتنا وقلبت أسافلها على أعاليها.

بين الفقيـه وخالتي خـلاف أم حب؟ حب بالحـرب أو حرب بالحب !! ربـك أعلم ! بينهمـا قصة ما تـكاد تُبين عن رأسـها حتى يدفنها هـو أو تسـابق هـي لتغمرها تحـت الطبقـات السـفلى لنوايا الناس.

جميـع سـكان القريـة نسـاء ورجـالا كانـوا مقتنعيـن أن معلم القـرآن هذا عاشـق متيـم لخالتي يامنـة وخالتـي أيضا كانـت تحبه، لكن التنافس بينهما على كتاب الله والخـوف من انتصارها عليه لم يشجعه للمغامرة في اتجاهها، لقد كانت لها شخصية عظيمة تخيفُ الرجال وهو ما جعلها تظـل عاتقا لم تعرف من الرجال سـوى هذا

البخاري صاحب «الصحيح» والذي لم يستطع أن يوصلها إلى الطريق الصحيح، طريق يودي بها إلى أحضان ذَكَر صالح تسكن إليه ويسكن إليها، بل على العكس من ذلك، فكلما حفظت وتبحرت في كتاب صحيح البخاري خشيها الرجالُ أكثر وتجنبوها وذهب بها «الصحيح» نحو الأعوج.

لكم أثارت خالتي غيرتي حتى وهي في حالات هوسها، حيث كانت لا تخفي عنا جنونها ورغبتها في الرجال، لم تتزوج خالتي يامنة حتى بلغت الأربعين أو زادت، على كل لا أحد يعرف على وجه التدقيق سنة ميلادها.

كانت خالتي يامنة على يقين أن الفقيه أحمد أو حمدان معلم القرآن سيدق باب جدتي ذات يوم ليطلب يدها، كانت تقول لنا وهي غارقة في ضحك هستيري: – طال الزمن أو قصر سيذوق من عسلي هذا، وتشير إلى ما بين فخذيها.

في لحظات اليأس الجارفة التي كانت ترمي بها في نوبات بكاء ونحيب مستمر وطويل تدوم اليوم والليلة، كانت تقول لنا: – اسمعي يا بنت رابحة واسمعي يا الروخا، وكانت لا تنادي الزهرة إلا بهذا الاسم الذي أنسى الجميع اسمها الحقيقي، أنا مستعدة أن أنسى هذا القرآن على آخره، سورةً سورةً وآيةً آيةً وكلمةً كلمةً، وأمحو من مخي كلما حفظته من «صحيح» البخاري، مستعدة أن أحول كلامه إلى بخار أو ضباب، وأحرق جميع النسخ التي نسختها منه وصرفت فيها سنوات من عمري مقابل أن أعثر على رجل يشبعني جنسا ويشعرني بأنوثتي ويمنح هذا الجسد حقه من الدنيا، لا علم بدون أنوثة شبعانة، والعلم الكثير عند النساء في

بلاد دون ثقافة وعلم يحولهن إلى فزاعات تخيف الرجال، أنصاف الرجال.

في لحظات ضعف إنساني، كانت خالتي يامنة مستعدة للذهاب إلى الشيخ أحمد أو حمدان لتعترف له بجهلها وبأنها لم تحفظ في حياتها آية واحدة ولم تقرأ فقرة لا من كتاب الله ولا من صحيح السيرة ولا من المتنبي الانتهازي مداح الملوك أو من بشار بن برد الأعمى الزنديق على الشعراء اللعنة إلى يوم الدين... أن تقول له ما يريد شريطة أن يأخذها ويَلِجَها كما ترغب وتريد وتحلم، أن يأخذها حتى تُحَمْحِم كفرس هائج.

العلم كالقبر المصنوع من رخام جميل، يمنح الخشية ولا يمنح المتعة للمرأة، لعن الله عِلما يثير العطش في بلد الجهل.

يحلو لهذه الخالة الذكية أن تجمعنا أنا وابنة عمي الروخا، الزهرة بنت المصطفى، وطويلا تحدثنا حديثا غريبا ما كنا لنصدقه لولا أنه مكتوب وموثق في صحيح البخاري، وكانت تقرأه حرفا حرفا وكلمة كلمة، تقرأه وتعيد القراءة، وتؤكد لنا بأنها على وضوء كبير، ولكي تجعلنا نتابعها بدقة كانت تضع نظارتها على عينيها تشدها بخيط حول أذنها اليسرى، تُدَوِّرُ الخيط دورتين حول الأذن الخارجية حتى لا تفلت النظارة، ثم تفتح الكتاب بعد أن تصلي على النبي سبعا ومثلها نفعل، اسمعوا يا بنات:

ورد في البخاري، والكتاب بين يديها، تموضع نظارتها ثانية فوق أرنبة أنفها الجميل وتتفقد طرف الخيط الملفوف حول أذنها اليسرى، وتواصل:

«..عن أم المؤمنين عائشة: أن أبا بكر دخل عليها والنبي

عندها يوم فطر أو أضحى، وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت الأنصار يوم بعاث، فقال أبو بكر: مزمار الشيطان، مرتين.) فقال النبي ص) دعهما يا أبا بكر. إن لكل قوم عيدا وأن عيدنا هذا اليوم (1. («

تنظر إلينا بحزم كأنما تتفقد وجودنا قبل أن تواصل القراءة، أخفي ضحكة على وشك الانفجار، أما ابنة عمي الروخا فكانت تخاف من خالتي يامنة بمجرد أن تلبس نظارتها، وهي أول كائن لبس النظارة في القرية، فتسكت ولا تلبث أن تبدأ في التردد على المرحاض، المرة تلو الأخرى، وجود خالتي وكلامها يُدرُّ البول لدى الروخا.

تقفل الكتاب، تضعه جانبا، تسحب رباط نظارتها من على أذنها اليسرى، ثم تحكي لنا ما ورد عن اشتراك النبي (ص) وعائشة في مشاهدة رقص الحبشة في مسجد الرسول (ص)، وكيف أن الرسول (ص) كان يسترها بردائه كي تنظر إلى لعب الحبشة، وأن عمر تحرج من عملهم وزجرهم، ولكن الرسول (ص) لا يتأثم وقال لهم: دونكم بني ارفدة حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة.

كانت خالتي يامنة تحب الرسول كثيرا، ويحلو لها سرد قصص حبه وخلافاته مع عائشة.

كانت تقرأ لنا من صحيح البخاري الذي تحفظه عن ظهر قلب أشياء تضحك وتخيف، كنا نضحك، ولكن ضحكي كان تقطعه نوبات خوف تسكنني. رهبة.

أنا الأخرى أحببت الرسول، ولله أعترف مع طلب الغفران، لقد أثارت فيّ عائشة إحساسا يشبه الغيرة، شعور غامض لفتاة غامضة.

كانت خالتي يامنة تسميني البوالة الخوافة، فقد ظللت أتبول في فراش النوم حتى داهمني دم الخصوبة، كانت رغبة التبول توقظني من نومي، في الشتاء كما في الصيف، ولكني كنت أخاف أن أخرج إلى المرحاض الذي كان على بعد أمتار من الغرفة التي كنت أنام فيها إلى جانب أختي وأخي الأصغر الذي لمرات عديدة نقلته من مكانه لأضعه مكاني فوق بولتي، لأقول في الصباح إنه هو صاحب الفعلة الشنيعة تلك، مع ذلك لم يكن هناك أحد يصدق هذا القول، الجميع كان يعلم بأنني أنا البوالة الخوافة صاحبة الفضيحة.

في البداية كنت أحتج وأبكي حين أسمع خالتي أو أمي أو حتى الروخا تتفوه بهذا اللقب، ولكنني، ومع مرور الزمن، لم أعد أعير ذلك الأمر كبير أهمية، بل ربما كنت أستأنس به فقد كان يعطيني نوعا من التلاؤم مع شخصيتي الضعيفة والمهزومة. كانت شخصية خالتي يامنة تثير فيّ الإعجاب، كنت أراها مثلي السامي، فأنا الأخرى كنت أرغب أن أحفظ القرآن بالكامل، أحلم أن ألتهم صحيح البخاري وأتغنى بأشعار كبار الشعراء لكن رأسي الذي أحمله بين كتفيَّ بدا لي صغيرا لا يستطيع أن يستوعب كل هذا الكم من الكتب وما فيها من كلام الله وكلام العباد عن كلام الله، كنت أجد صعوبة في حفظ بعض تلك المحفوظات القصيرة التي لا تتعدى العشرة أبيات وبعض دروس التاريخ والجغرافيا المكونة

من بعض فقرات فكيف لي أن أدخل كل هذه الأوراق في رأسي.

ذات يوم توقفت خالتي يامنة عن قراءة القرآن، وأخفت كتاب صحيح البخاري وأحرقت ما نسخته من نسخ صرفت فيها الأيام والليالي، والتزمت الصمت في ركن غرفتها، تشرب الماء وتأكل التين المجفف المغمور في زيت الزيتون البلدي، حين دخلتُ عليها وهي على هذا الحال وقد استغربتُ أمرها وما طرأ عليها من تغير في العقل والبدن واللسان، سألتها: أمن يحفظ يا خالتي كتاب الله يعاقب نفسه هذا العقاب؟ هذا حرام عليكِ.

رفعت رأسها وقد بدت متعبة وقد نحف جسمها مما زادها جمالا وجاذبية، لكنها لم تفقد ابتسامتها، وقد اختفت اللحية من وجهها.

قالت لي: يا ابنة أختي، لقد ضيعت ربع قرن أو أكثر بين الكتب وفي مباراة الرجال الفقهاء حول كتاب الله وتفاسيره وحول الشعر ونحوه وبحوره لكن هذا كله لم يستطع أن يملأ فراغ «الرجل»/ الذكر في داخلي، يا ابنة أختي، فراغ الرجل شيء مهول أكثر وأعظم من فراغ الإيمان، لا إيمان بالله يكون صادقا يحفظكِ من عين الشيطان دون رجل يحتضنك ليلا وعند القيلولة. الرجل زلزال!

استغربتُ قولها وشعرت بقشعريرة تصعد كجيوش النمل جسدي، تلتها رغبة كبيرة في التبول وضغط في المثانة وارتعاشة غير عادية في عضوي الجنسي.

ثم أضافت خالتي يامنة بحكمة قاتلة:- قد يقضي الإنسان جزءا كبيرا من عمره خالي القلب والعقل من الإيمان، ولكنه قد

يستدرك ذلك في آخر حياته والله في ذلك غفور رحيم، لكن أن تعبر المرأة حياتها، بلياليها وقيلولاتها، صيفها وشتائها، دون رجل فلن يغفر لها أحد ذلك حتى جسدها لن يغفر لها، يا ابنة أختي.

يومها، وللمرة الأولى، رأيت فيها خالتي يامنة تبكي بكاء مرّا، نعم يامنة وما أدراك ما اليامنة، تبكي كما الأطفال يبكون، تلك التي كانت لا تتردد في ارتداء لباس أبي، سرواله وقميصه وبرنسه والتعَمُّم بعمامته البيضاء، ها هي اليوم تبكي كطفلة ضائعة على رصيف محطة وقد فاتها موعد ركوب القطار، وقد سقط الليل الموحش الوحش عليها وحيدة في فراغ شارع، ولا رحيم.

شعرتُ وكأن خالتي يامنة بدأت تفقد التحكم في عقلها قليلا قليلا، كنت أقول إن الله منحها عقلا أكبر وأثقل من أن يتحمله جسمها الصغير، ولكن ومع مرور الأيام أخذت تستعيد بعض إشراقة وجهها وتنحت على أساريره ابتسامة جديدة غير تلك التي تعودت عليها مرسومة في عينيها المائلتين إلى الاخضرار صيفا والزرقة شتاء.

كانت يامنة سعيدة وهي تتنازل يوما بعد آخر عن ملامح صورتها القديمة، تبدو خفيفة كفراشة وهي تبتعد أكثر وأكثر عن عالمها الأول بكل ما كان يحويه من علامات القيادة والريادة والمنافسة في العلم وكلام الله.

كنت أشعر أنها تنتظر شيئا ما، كانت تقضي يومها جالسة على كرسي خشبي قبالة الباب، لا تتحرك من مكانها إلا إذا آلمتها أشعة للشمس لتتزحزح قليلا نحو الظل من دون أن تفقد مراقبتها المستمرة للباب الخارجي للحوش.

قالت لي: – سيدق الباب يا ابنة أختي، لقد انقضت ثلاثة شهور على اليوم الذي طلقت فيه عالمي الأول، إنها أيام العدة انقضت، إن ظله يُظللني كسحاب حيثما التفتُ.

كنت أخاف أن أتواجد معها لوحدينا، وجها لوجه، لذا كنت أصر أن أحضر معي الروخا، هذيانها يثير فيَّ الرعب كلما وضعت رأسي على الوسادة، وهو ما يجعلني أتبول في فراشي المرتين أو أكثر في الليلة الواحدة.

هذا النهار، ومنذ الصباح، تجمَّلتْ خالتي يامنة، لبستْ أجمل ما في خزانتها، ورشت عتبة الحوش بماء الورد وقطع السكر الصغيرة وعادت لتجلس على كرسيها الخشبي تقابل الباب كقطة أمام صحن سردين، تنتظر دقا، تنتظر قادما.

لم يتأخر القادم، وكما توقعت خالتي يامنة جاء الذي بدَّدَ صمت الباب، لم يكن القادم سوى السي أحمد أوحمدان، البربري الخجول ابن قرية الأربعاء نايث إيراثن وفقيه القرية ومعلم كُتّابها، انسحبت يامنة بكرسيها إلى داخل الغرفة وقد تركت لأول مرة مكانها من مقابل الباب والذي تربعت عليه منذ ثلاثة شهور، استقبلت جدتي ضيفها وهو ليس بغريب عن القرية بكثير من الترحيب والاحترام الذي يليق بأهل العلم والدين، تحدثا طويلا على براد شاي وعسل وخبز بلدي، أو هكذا بدا المشهد ليامنة وهي تتنصت عليهما من الغرفة المجاورة وهي التي لها أذن قادرة على سماع صوت سقوط حبّات الندى عند الفجر.

19

النساء والرجال وما بينهما من شطط

قالت خالتي يامنة: - أول مرة أخشى فيها مواجهة السي أحمد أوحمدان وأنا التي لطالما ناقشته وجادلته وهزمته في معاركنا حول كتاب الله وفي حفظ الشعر وفي قواعد اللغة العربية وخلافات البصريين والكوفيين، شعرت بي طفلة صغيرة تتعثر في الحياء والخوف الغامض.

قلت لها: - لماذا هذا الحال يا خالتي وأنت التي كنت لا تترددين في ارتداء ملابس والدي ولك نظارة زجاجها سميك يشبه زجاج قاع القنينات وتدخنين تبغك الخاص وتخرجين بطريقة مثيرة أسراب الدخان من فتحتي أنفك كما سيارة الأجرة تطلق دخانها الأسود، عجبا؟

قالت خالتي: بحثتُ عني، فجأة فلم أجِدْني، اختفتْ يامنة القديمة مني، اندثرتْ. ذابتْ.

obeikandl.com

قلتُ: - كيف؟

قالت: - هزمته يا ابنة أختي في الدين فهزمني في الدنيا، وتلك أكبر هزيمة.

قالت لنا: - قلتُ للسي أحمد أوحمدان في أول ليلة فراش ناعمة ذقت فيها عسل الذكر وهو عسل لا مثيل له حتى في الحلم، قلتُ له باكية بين ذراعيه، لقد كرهتُ منافسة الرجال، مللتُ منها، قضيتُ عمري الذي صرفت منه قرابة الأربعين حولا قمريا يا سيدي، قضيتُها كما في ساحة معارك الديكة، في التنافس حول شرح الكلمات وتخريج الآيات الكريمة وتفسير بلاغة المعلقات السبع أو العشر، حسب شرح الحسين بن أحمد الزوزنى المتوفى 486 هجري، لا يهم، قضيتها في متاهات الاختلافات والخلافات ما بين حماسة البحتري وحماسة أبي تمام، كل هذا اللغو جعلني أنسى نفسي، أنسى يامنة، في معمعة فارغة نسيت فيها نفسي وإذ انتبهت وجدت جسدي بكل ما فيه من تفاح وعنب وريحان وخوخ والذي له عليّ حق، حق المتعة والإمتاع، ينحدر إلى خريفه المفجع، ينحدر إلى الهاوية، إلى الغروب السحيق.

كانت خالتي تتحدث وقد شعرتُ لأول مرة بأن الغنة التي بحبال صوتها تشبه ما في حنجرتي، وأنا أستمعُ إليها باندهاش ومثانتي منقبضة متوترة وكأنما قطرات سائل ساخن بدأت تسيل على ملابسي الداخلية، وعلى جلدي تنغرز مثل أشواك أو إبر الواحدة إثر الأخرى.

قالت خالتي يامنة: - منذ الليلة الأولى حيث دخل بي السي أحمد أوحمدان زوجةً وفض بكارتي، عرفتُ معنى الألم اللذيذ،

اللذة الناعمة، لحظتها وأنا أتألم بكل متعة قررتُ أن أتعلم اللغة الأمازيغية وأقسمت ألا أتكلم ثانية إلا بهذه اللغة، وضعت بيني وبين اللغة العربية حاجزا مانعا، عازلا اسمنتيا عاليا، قطعت لساني العربي الذي كان فصيحا أعطيته لقط الجارة.

نظرتُ إلى القط غاتا الذي لا يفارق حجري، كان يسمع الحكاية بتأمل.

«الفم اللي يدخل منو الريح سدو واستريح.»، كنت أشعر وكأن اللغة العربية هي التي قادتني إلى الغروب، إذ من خلال جاذبيتها الأخاذة النائمة في فتنة المعلقات وسور القرآن الكريم وتناغم سيرة صحيح البخاري وإدهاش كتابي الحماستين وسحر زندقة بشار بن برد.... هذه اللغة أوصلتني إلى اليأس المفتوح الذي أنساني عضوي الجنسي المقفل على عذرية كاذبة ومخترقة رغم انسدادها، حتى الطعام الذي كنت أفضله قررت أن أغيره، أقسمت ألا أتذوق ثانية، فيما بقي لي من سنوات، أكلة الحريرة، كنت أحب تناول أكلة الحريرة الندرومية بكل توابلها وكنت أقضي الساعات أتابع أمي وهي تحضرها أيام رمضان خاصة، كانت تبدأ عملها عند العصر لتكون الوجبة جاهزة عند رفع آذان المغرب، كان منظر أمي وهي تشتغل في مطبخنا الصغير الذي لم تكن مساحته تتجاوز الأربعة أمتار مربعة، غازية وطاولة ودولاب به ذخيرة الموسم وبعض قناني زيت الزيتون ومرفع وهو عبارة عن لوح صُفِّفتْ عليه قارورات التوابل وبعض أغراض أخرى، كانت تتحرك في هذا الفضاء بإتقان وحب وكأنها تعزف سمفونية بحيرة البجع لوحدها، بكل الأصابع وبكل الآلات الموسيقية،

وإذ محوت من رأسي كل شيء، فقد احتفظت بعادة وحيدة، لم أستطع التخلي عنها هي عنايتي بأصابعي يدي، لست أدري لماذا، صغيرة منذ أن انتبهت إلى جمال أصابع والدي، وكيف صُبت بإتقان مثير من شمع سحري، سقطت في حب شكلها، لحظتها آمنت أن الإنسان يعرف من جمال أصابعه ويقدر لذلك، حين أنظر إلى أصابع والدي أشعر أنها صنعت للعزف على آلة موسيقية أو لملامسة جسد جميل. ولأنني ابنة والدها !! كنت أقضي وقتا كثيرا في تقليم أظافري، وترطيب أصابعي في سائل عجيب، أغمرها فيه لمدة نصف نهار كامل، مرة في الأسبوع، كل يوم اثنين، لماذا يوم الاثنين وليس الثلاثاء أو الخميس؟ لست أدري !! كان هذا السائل المكثف ذو الرائحة العطرة الهادئة يحضر من قبل أمي، تُقطِّره من أوراق عشبة وحشية غريبة لا تنبت إلا على أطراف بستان أشجار حب الملوك غير بعيد من بيتنا، عشبة لا أحد يعرفُ اسمَها سوى أمي ولم تنطق يوما باسمها قدامي أو قدام غيري، يرجع البعض هذا الصمت عن ذكر اسم العشبة لا لشيء إلا لأنه هو نفس اسم العضو الجنسي للمرأة، لذا كانت أمي تتحرج من لفظ اسم هذه العشبة العجيبة أمامنا.

كانت أمي تقول لي: إن لهذه العشبة قصة غريبة، لقد ارتبط تاريخها بتواريخ سلالات كثيرة من الملكات والأميرات ومحظيات الملوك وعشيقات الأمراء، ففي الوقت الذي كان فيه الملوك وذرياتهم من الذكور مأخوذين بثمر شجرهم الذي سموه «حب الملوك» بما فيه من لذيذ الطُعْم، في المقابل، كانت الملكات والأميرات منشغلات بأسرار هذه العشبة التي تنبت بفوضى على

أطراف البساتين، كان سر العشبة هذه مقصورا على النساء وبعض عبيد الأميرات من المخصيين المتخصصين في عزف موسيقى السرير وحراسة أسرة الملوك، فقد كان هؤلاء دون غيرهم على اطلاع على أسرار هذه العشبة وهم وحدهم من كان يتداول اسمها دون حرج والذي ظل مغيبا لم يَرِدْ لا على لسان الرواة ولا على قلم مؤلفي كتب تاريخ النبات من العرب والبربر والروم، فالملكات والأميرات وحراس أسرة الملوك وموسيقيو القصور من المخصيين واللواطيين، الجميع كان يحرص الحرص الشديد على ألا تخرج أسرار هذه العشبة خارج أروقة القصور فتسقط في أذن بعض المنافسات الجميلات من بنات العامة اللواتي كن يتربصن بذكور القصور من الأزواج الملوك والأمراء والعشاق والقادة والفرسان. وقد تداولت بعض الكتب المتأخرة جدا منافع هذه العشبة ووضعتها تحت اسم «العشبة السرية» وبعضهم سماها «عشبة حب الملوك» وفي كتب أخرى يطلق عليها اسم «عشبة الغيرة»، أما عند أمي فكان للعشبة اسمها الحقيقي، اسم يطابق اسم العضو الجنسي للمرأة!

كانت خالتي يامنة ومنذ أن دق باب البيت الكبير السي أحمد أوحمدان طالبا يدها، لا تخرج أصابعها من السائل المقطر من هذه العشبة، كنت حين أتذمر من رؤيتها وهي على هذا الحال، تقول لي وقد دوزنت صوتها على إيقاع هادئ مجنس: - يا ابنة أختي، الأصابع هي أصل الشبق، منبعُ الغواية الأصابعُ، فمنها تصعد الرغبة الجنسية كما تصعد الموسيقى من أنامل العازف الماهر، كل ما هو جميل ومغر منبعه الأنامل، ومن رؤوس الأنامل تصعد

الشـهقة الأخيرة للروح، ومنهما تدخل أيضا، الجميل من هو جميل الأصابع.

وإذ أدقـق النظر إلـى أصابـع خالتي يامنـة العشـر أجدها على شـكل كائنات خارقة ملحقة بجسـدها، كائنـات تشـبه العصافير لها حيـوات منفصلـة ومسـتقلة عـن باقـي الأعضـاء الأخـرى، تتحرك بطريقـة مثيـرة ويلمع شـمعها البهي أمـام ضـوء النهار فتبـدو قطعة ماس أو زبرجدة. فتنة. ومع ذلك وعلى الرغم من إعجابي الشـديد بخالتي لم أجد نفسـي ولو لمرة واحدة، ولو للحظة عابرة، مدفوعة كي أغمر أصابعي في سائل هذه العشبة العجيبة، كنت أجد أصابعي جميلة ومثيـرة دون أن أغرقها أو أسـجنها لسـاعات طـوال في هذا السائل المقطر من عشبة اسمها من اسم عضوي الجنسي.

قالت لـي الخالـة يامنة وقـد سـحبت أصابعها لبعـض الوقت من السـائل الغريب: – يا ابنة أختـي، الحياة أهم مـن الدين وأعظم منه. أدركتُ ذلك، للأسـف، متأخرا، فشـرعت في البحث عن سِلم لحـرب فتحتها علـى الجميع بما في ذلك جسـدي الذي نسـيته في خضم قراءات القرآن الكريم والسـيرة النبوية الشـريفة وبشـكل أقل الشـعر العربي القديم المثير، قررت أن أضع أسلحتي أرضا، جميع أسـلحتي التـي لـم تنفع سـوى فـي تأليـب الجميـع ضـدي ورمت بجمالي في سلة المهملات وضعتها جانبا، رفعت الراية البيضاء.

غيـرتُ ألـوان ألبسـتي، بعـد أن كنـتُ لا أرتـدي منهـا سـوى الأسـود والبنـي والرمـادي اختـرتُ لـي الألـوان الزاهيـة، الـوردي والأزرق والأحمر والأصفر، كنتُ أريـد أن أكون أمازيغية في ألوان فسـاتيني، فالمـرأة البربرية منـذ أن يصعد لهـا نهدان بحبتـي الفول

تغرق جسدها في مهرجان من الألوان، من فوطتها إلى عباءاتها وصولا إلى مناديلها، كل ما عليها يوحي بالضوء والفسحة والسماء والطبيعة في عنفوان ربيعها.

قررت أن أتعلم اللغة الأمازيغية، وفي ظرف أسبوعين، بقدرة قادر، جرت كالماء العذب على لساني. إننا نتعلم لغة كي نحب بها، لا كي نفهم العالم بها، ليس هناك أسهل من إتقان لغة ما شريطة أن يتكلمها الحبيب المتيم، لغة العاشق لها سلطة الغواية والعطر قبل سلطة المعنى والفهم.

لماذا قررت أن أتعلم الأمازيغية؟ الحقيقة أن هذه الرغبة جاءتني مع الليلة الأولى، ومع اللحظة الأولى التي تسللت فيها بين شراشف سرير السي أحمد أوحمدان، حين وضع أنامله على جسدي العاري، نطقت أصابعه ففجرت فيّ هذه الرغبة، شعرت بأنني لا أستطيع أن أحدثه عن الحب وعن العواطف باللغة العربية التي لطالما تنافسنا بها وعليها وبها قرأنا وحفظنا كتاب الله، كنت في البحث عن لغة أخرى توقظ جسدي تحرره من عقد علقت به طويلا. لم يستغرب أحمد أو حمدان هذه السرعة التي بها تعلمت الأمازيغية، وجد الأمر عاديا وكأنما كان هو الآخر ينتظر ذلك مني لقاءً حول لغة أخرى نصنع بها وفيها ذاكرة جديدة مشتركة وحرة، ومن يومها قررنا ألا نتحدث إلا بالأمازيغية وبالتالي أحرر نفسي من اللغة العربية فهي تذكرني بغبائي العالِم أو وبجهلي المُتَعالِم الذي أغمض عيني وترك الدنيا تمر من أمامي على رؤوس أصابعها دون أن ألتفت إليها لأحتضنها وأعض عليها بأسنان شرسة.

هكذا كانت اللغة الجديدة، اللغة الأمازيغية، لغة السرير، علينا

خلق لغة للسرير، لغة غير التي نـأكل بها، وبها نخاطـب الناس في الأسواق وفي الحافلات وفي الحملات الانتخابية الكاذبة، لا سرير بدون لغة له وحده لا شـريك له، إننا نمارس الجنس أولا وقبل كل شـيء ببهجة اللسـان، بالأمازيغيـة كنت أقـول كل ما يريده السـرير وما أرغبـه فيه فوق السـرير ومـا بين الشرشـف الحريـري، حررت لسـاني من العربية للإفصاح الحر عن رغباتي، اللغة ليسـت وسـيلة للإفهام إنها جزء أساسـي في الجنس وفي بهجة الجسد، مثلها مثل الأصابع تماما بتمام، للغة سـر الافتان ولها قوة سـحرية غريبة تزيد في الرغبة الجنسـية والعاطفية مكيالين أو أكثر، كمـا أنها قادرة، في الوقت نفسـه، على قتل كل رغبة، اللغة هي هواء يتنفسه الجسد، ما كنتُ لأسـتطيعَ قول كل هذا الذي أقوله الآن لسي أحمد أوحمدان من كلام شـعري فاحش وجميل، الفحـش جميل حين تحـرره لغة متواطئة مع الجسد، لغة لا تخدع ولا تنافق، وما كان باستطاعته هو الآخر أن يقول لي كل هذا الذي يصبه في أذني لو أنه اسـتعمل لغة القرآن الكريم التي تخيفنا منذ الصغر.

دون أن يكـون بيننا شـرط مسـبق أو تفاهـم أو عقد سـريري، فقد بسـطت اللغة الأمازيغية سلطتها على سـريرنا وأسرارنا وفحيح جسدينا، في أعلى درجات الشـبق كنت أصرخ بهذه اللغة وأجد في هذا الصراخ ممرا لاكتشاف شريكي أكثر، كان صراخي يحرره أكثر فأكثر كما يحررني من عقد نفسي المتراكمة.

منذ اليوم الأول لدخولي بيت الزوجيـة، قررت أن أمنع جميع كتـب العربية من الدخـول إلى بيتنا بمـا في ذلك نسـخة المصحف الشـريف، لقد وضعتها فـي فوطة بيضـاء نظيفة ونزلت إلى الشـارع

ووضعتها بين يدي أول رجل التقيته، ثم عدت أدراجي وقد شعرت بالتحرر، المصحف الشريف يخيفني يكبلني، لا يترك لي إمكانية الصراخ، الهبل، كنت أخاف أن تدخل أي نسخة من المصحف الشريف فأقع في أسره وأعود إليه وبالتالي أعود إلى منافسة الفقيه والناس الآخرين وأفقد مملكة السرير، وأقفل الباب عني وأعود لاغتصاب حياتي: الحياة قبل الدين وللجسد علينا حق كبير، والجنس صلاة، بل أكبر الصلوات التي توصلنا إلى الله الجميل.

أصبحت سعيدة في بيت دون صحيح البخاري وكتب التأويل حوله وصراع السنة والشيعة. حرب الديكة.

بدأت أقرأ باللغة الأمازيغية، قرأت أشعار الشيخ محند أمحند أمير الشعر القبائلي، أعجبني شعره البوهيمي الحر، كنت أستمتع بقصصه مع النساء والحشيش والأسفار.

هذا المساء لم يتوقف السي أحمد أوحمدان عن الضحك، حتى خفت عليه من ذلك الضحك الهستيري، تجردت من لباسي تعطرت تسللت ما بين الإزارين ولحق بي على الفور، كان مشتعلا رغبة.

قال لي، وفي صوته رنة خلخال فضي تطوق رِجْلا متعبة، سأروي لك ما قرأته اليوم من فتاوي أحد الشيوخ المغاربة واسمه الشيخ عبد الباري الزمزمي، كان يتكلم بالأمازيغية طبعا، ويبدو أن أصل هذا المفتي يعود إلى قبيلة من الجزيرة العربية، من أرض الحجاز الشريفة، كانت قبيلته هذه من بين القبائل التي تشرف على تسيير ماء زمزم المكرم، فالزمزميون معروفون قديما في الجزيرة العربية أنهم أولئك الذين كانوا يوزعون ماء زمزم على المعتمرين

والحجاج القادمين من كل فج، وهو إلى ذلك أيضا عضو في البرلمان المغربي وله في البلاد تأثير غريب على العباد من الطبقات الشعبية البسيطة، هو رجل مسموع لأنه أولا وقبل كل شيء يستعمل خطابا دينيا في حواره مع العامة قليلة الإفهام، وهو أيضا رئيس الجمعية المغربية للدراسات والبحوث، هذا الشيخ أفتى بما يلي:

«ليس هناك نص ما في القرآن يمنع الممارسة الجنسية بين الرجل والمرأة، كيفما كان نوعها وشكلها وطريقتها، حتى وإن كانت عن طريق الفم.»

كان عضوه الخشن منتصبا كوتد بين فخذي، على استعداد للهجوم في أي لحظة، وكنت على نار، مستعدة، ككل ليلة، لفتح أبواب المدينة دون مقاومة تذكر، بل بزغاريد تشبه «نشيد طلع البدر علينا»، قبل أن يلجلني، أعجبتني الفكرة، أدهشتني، دوختني فتوى الشيخ عبد الباري الزمزمي هذا، سليل حراس ماء زمزم، وعلى الفور أخذت عضو السي أحمد أوحمدان بين يدي المرتجفتين، سحبته بهدوء من مكانه بين فخذيّ، ودفعت به في فمي المبلل، شعرت بلذة مضاعفة، كان سعيدا وكأنه لم يكن ينتظر سوى هذه الحركة مني، بل شعرت وكأنه جاء بحكاية الفتوى هذه لكي يسحبني إلى مثل هذا الفعل الممتع. ليلتها صرخ صراخا عظيما وهو يقذف بكل عنفه في فمي. كانت تلك أول ممارسة لي للجنس الفموي كما عبر عنها الشيخ عبد الباري الزمزمي. شكرا لك يا أيها شيخ مرتين أو ثلاثا يا أيها الزمزمي، فقد أشعرتني وزوجي يقذف بسائله المنوي في فمي وكأنني أشرب ماء زمزم الذي لم أذقه في

حياتي، أنا التي لكم تمنيت أن أحج لأقف على ممشى الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام، وشكرا لك أيضا لأنك جعلتني أسمع صراخ زوجي، صراخ يصعد دون رقيب أو حسيب، ذكرني بصرخات الأطفال ساعة الختان، حين تقص الحشفة من الرأس فيتبولون في حجر الحجام، وشكرا لك أيضا لأنك جعلتني أرى نورا ملائكيا ساعة الشبق في عيني زوجي ما كنت لأراه قبل هذه الليلة العظيمة، ليلة فتوى الشيخ عبد الباري الزمزمي، ونحن على سرير الحلال، في الحلال، «نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم».

obeikandl.com

20

ميتامورفوز

حين دخلت خالتي يامنة في حالة من التوحد التي وصلت بها إلى مراتب العبادة، عبادة أطلقت عليها اسم: «عبادة القضيب»، وأصبحت من جراء ذلك تهذي الليل كما النهار بصلوات تسبح فيه لسمو للقضيب، قررتُ أن أغادرها، أن أختفي مرة ثانية من هذه القرية خوفا من أن أتحول إلى أول مؤمنة بديانتها هذه، لكن بعد فترة اكتشفت أنني كنت أرغب التخلص من ابنة عمي الزهرة الروخا أكثر من خوفي من تعبد خالتي يامنة، لقد أتعبتني هذه الروخا بحكاياتها عن ابنها الوحيد الخنثى والذي تبدو معالم الأنوثة على جسمه وفي حبال الصوتية وفي حركاته غالبة على صفات الذكورة فيه، إذ كانت أمه تفرض عليه لباس الذكور خارجيا في المقابل لم يكن يقبل ولا يرضى إلا بارتداء الملابس الداخلية النسائية، كان وسيما ووديعا لا يتكلم كثيرا، يجلس إلى جانب أمه

obeikandl.com

حيثما جلست، لاصقا بها، شادا على تلابيبها، دون لسان ينطق، ولا وجود يُذكر، لا يعكر جلسة ولا يطلب طلبا، لا يرفع رمشا ولا يفسد حديثا.

هذا الفتى الوسيم الوديع الذي يشبه أيقونة أو إلها يونانيا والذي اسمه رشيق هو من حرك فيّ فجأة وبشكل عنيف مدوخ ومدوي ذكرى مُومُو، فاشتعلتُ ثانية شوقا إليه وأنا التي كنت اعتقدت أنني دفنته وإلى الأبد في مقبرة النسيان وأنه أصبح رمادا باردا.

ها هو إذن مُومُو مؤذن الفجر ذو الصوت الأنثوي ينهض من بين ملامح الفتى رشيق الخنثى الذي تجاوز عمره الخامسة عشر دون أثر لشعرة في وجهه أو زغب على شواربه، وكلما زادت الزهرة الروخا في الحديث عن عادات وتصرفات ابنها الغريبة، باكية حظها وقدرها في وحيدها هذا، كنت أستعيد أصابع مُومُو وصوته الرقيق الناعم وذكريات الطالبات وهن يتعاملن معه دون حرج وبكثير من الراحة وكأنه واحدة منهن.

تقول الزهرة الروخا: إن رشيق لا يغادر مكانه من قُدّام المرآة وأنه لا يتردد في استعمال أدوات زينتها كأحمر الشفاه وبودرة الوجه والكحل والعطور النسوية وأن الأمر وصل به إلى سرقة الحفاظات القطنية التي تستعملها أيام الدورة الدموية ليضعها بين فخذيه كما تفعل هي.

قالت الزهرة الروخا باكية، رافعة يديها إلى السماء: - سامحني يا ربي على معصياتي الكثيرات، عفوك كبير ومغفرتك لا شطآن لها ولا حدود. وانفجرت في نوبات شهيق متواصلة.

قلت لها محاولة التهدئة من روعها: - إننا جميعا نحمل على أكتافنا معصيات لا يقدر على ارتكابها سوى الشيطان، وربما الشيطان نفسه لا يتجرأ على الإتيان بمثلها، قلتُ ذلك وأنا أفكر في سبب مغادرتي بيت الرجل الثعبان الذي يشبه والدي لا لشيء إلا لأنه خدعني في منامه وأراد أن يقدمني هدية للرسول، من يخون حبيبته في الحلم يسهل عليه خيانتها في الواقع.

قالت وقد أخذت رشيق في حضنها وقبلته على وجنتيه دون أن يحرك هذا الأخير طرفا:- غفرانك يا رب، غفرانك يا رب، غفرانك يا رب، اسمعي يا ابنة عمي يا فاطمة، حين أدركتُ حال رشيق وقد حِرتُ بين الأنثى فيه والذكر، مدفوعة بلهفة الأم التي تريده طفلا ذكرا وكي استنهض الذكورة فيه كنت أنام وإياه على سرير واحد فأعريه بالكامل ثم أشرع في ملاعبة قضيبه بيدي ثم بفمي وأضعه بين فخذي فلا يحرك ساكنا، وكأن عضوه غير لاصق فيه، استعملت معه كل الإغراءات الجسدية والعطرية ولم يحرك ساكنا، كان قضيبه يتقلص ويتلاشى يوما بعد يوم بين فخذيه، كنت أبكي وأنا أنظر إليه في هذه الحال من العجز، في المقابل كان صدره ينتفخ ليكشف على نهدين صغيرين يكبران ويتكورا يوما بعد يوم، كنت أشد عليهما برباط من حرير كي لا يكبرا أكثر.

كانت ابنة عمي الزهرة الروخا تتكلم بألم فيقطر حديثها مرارة مع مطر من دموع وكأنها أمام جثة رشيق الوسيم ميتا، كنت أسمعها ولا أسمعها إذ كان ذهني سارحا في البعد البعيد وأنا أسترجع تفاصيل ما حكاه لي مُومُو عن علاقته السرية الحميمة بأخته التي كانت تداعبه ويداعبها، تلعب بقضيبه ويلعب بعضوها، كان يقوم

بذلك ليتأكد وليؤكد لوالده بأنه يختلف عن أخواته وأنه على عكس مما يتصوره فهو فحل لا يختلف عن أخيه الأصغر المفضل والمدلل من قبل الأب.

لقد أعاد لي حال الفتى رشيق الوسيم صورة مُومُو وهو ما جعلني أقرر ترك القرية والعودة إلى المدينة للبحث عنه واسترجاعه والعيش معه ولو تحت سقف المسجد، فالمسجد لا يعاقب على الحب، إنه على العكس من ذلك يعاقب على الكراهية والبغضاء.

كنت أنظرُ إلى القط غاتا بين ذراعي وقد بدا حزينا لمنظر زهرة الروخا ورشيق الوسيم الساكت وكأنه صورة لملاك في إطار وأتساءل عن مصدر هذا الحب الذي فاجأني وقد كنت اعتقدت أنه انتهى.

حين قلت لزهرة الروخا: – إني ذاهبة يا ابنة عمي. أخذتني في حضنها وبكت طالبة مني ألا أتركها وحيدة على هذا الحال مكسورة أمام رشيق الخنثى. لكن قراري كان حاسما وفكرة البحث عن مومو واسترجاعه استقرت في رأسي وملأته.

حكاية خالتي يامنة مع الفقيه وتنازلها عن علمها الكثير لأجل متعة الجسد قبل فوات الأوان وقبل هبوب خريف العمر وانغماسها في «تعبدها» الجديد هو أيضا ما حرضني على الاسراع بالرحيل أملا في القبض على مومو قبل مغيب العمر وقبل أن أنزل إلى جنون يشبه جنون خالتي التي من أجل المتعة بدلت لسانها وفرغت بيتها ورأسها من الكتب واتخذت لها ما يشبه عبادة أخرى غير عبادة الله عز وجل.

هذا الصباح بدأ العد التنازلي، ها أنذا أعود أدراجي إلى مدينة

وهران، لا أملك شيئا سوى ذكرياتي وهذا القط غاتا الذي أشعر بأنه بدأ يفهم لغتي وأفهم لغته، يحدثني وأحدثه، ما حكاه الرجل الثعبان الخائن في المنام والذي يشبه والدي عن قصة أخته شُمَيْسَة والقط والساحة المهجورة ليس خيالا ولا هوسا، إنها حقيقة لا تعرفها سوى المرأة والقطط.

قلت للقط غاتا: - هيا معي أنت الوحيد رفيقي، سأبحث عن مومو في مسجده وسأنسى وأنسيه هزيمته أمام الرجل الثعبان الذي يشبه والدي والذي خطف مخي بغموضه حتى انكشفت حقيقة سره في الحلم بعد أن أخفاها في الواقع.

نظر إليّ القط غاتا وكأنما أصابته غيرة من كلامي العميق والحميم عن مُومُو، ثم رفع لسانه من برودة صمته وأجابني: - ومن هو هذا «الماوْماوْ»؟، قال ذلك بغضب بائن.

أدرك الآن بأن بلسان غاتا لوثة جميلة، فهو لا يحسن نطق اسم مُومُو بشكل صحيح، أو إنه نطق الاسم على تلك الطريقة استهزاء من هذا الغريم. ثم استدركت الموقف وقلت بيني وبين نفسي:- ربما اعتقد غاتا بأن مُومُو أو ماوْماوْ قط آخر أبحث عنه لأغدق عليه حنانا وبالتالي أنتقص مما أصبه عليه من عشق ويصبه عليّ.

على الفور، فهم غاتا ما دار في رأسي، حتى دون أن أنبس ببنت شفة، ثم قال: - إذا كنت تريدين أن تستبدليني بماوْماو آخر فلك مطلق الحرية، اتركيني على قارعة الطريق.

كان القط غاتا جادا في كلامه وقد أربكتني طريقته في الحديث وقراره بالانفصال عني لأني أريد أن أعوضه بقط آخر

اختارَ المسجد سكنا، قال لي: - هل تريدين قطا مسلما. بهذه العبارة كان يريد أن يفهمني بأنني ربما أتحفظ على علاقتنا لأنه قط ينتمي إلى أسرة يهودية، فقد ولد وكبر في أحضان شهيرا أم خوسي، قبلته على رأسه ثلاث مرات وقلت له ودمع العين يسبقني وقد زلزلت الأرض تحت قدمي: - لا تغضب يا غاتا، هناك سوء تفاهم بيننا، فمُومُو الذي أتحدث عنه ليس قطا مسلما إنما هو صديق قديم اشتقت إليه وهو إضافة إلى ذلك عازف عود متميز وصاحب صوت جميل عذب سيخفف علينا وحدتنا بمواهبه الموسيقية والغنائية وهو إلى ذلك يرفع اسم الله ورسوله خمس مرات في اليوم آذانا وصلوات.

ابتسم غاتا، ولأول مرة أكتشف بأنه ضيّع سنا من صف أسانه العليا، ووجدت في ابتسامته بسن ناقصة كثيرا من التدلل والحب والغيرة. وشعرت بأن الأرض عادت إلى اتزانها وتوازنها بمجرد أن انفردت ملامح وجهه بتلك الابتسامة، لم أكن أتصور أن القط غاتا قادر أن يثير فيّ كل هذا القلق لمجرد سوء تفاهم بسيط على كلمة أدرك معناها على غير وجهها الصحيح.

ركبت الحافلة في اتجاه مدينة وهران، فجأة لمع برق أشعل غيم السماء ودوى رعد قوي في البعيد جهة الغرب. ارتعب غاتا من سلسلة صوت الرعد الذي يشبه انفجارات متواصلة، نظر إليّ وقد التصق بي أكثر: - إن الرعد لعنة ترسلها السماء على الأرض لمعاقبة الذين عليها وإن كل رعدة تنزل تخلف ضحايا من البشر والقطط والطيور، الاحتراق بالرعد لعنة من السماء، غضب علينا.

أخافني كلام غاتا الحكيم، ومع ذلك كنت أتابع ضوء البرق

اللامع الذي يشكل بين اللحظة والأخرى رسومات لأشكال هندسية عجيبة على الغيوم المتحركة بهدوء في اتجاه الشرق. كان القط غاتا يخفي رأسه بين نهدي ولا يريد أن يرى البرق ولا أن يسمع الرعد وكأنما ينتظر كارثة ستحط على رؤوس الخلق، ولم نتقدم كثيرا حتى توقفت الحافلة عند سهل فسيح وإذا نحن أمام جمع من الناس يسرعون في كل اتجاه وهم يصرخون: - لقد أحرقته الرعدة مع قطيع غنمه، لقد أضحى حفنة رماد...

قال غاتا دون أن يسحب رأسه من بين نهدي: - باستثناء كلبه الذي نجا بأعجوبة بعد أن احترق جزء من أذنه اليسرى وطرف من ذيله.

رميت بنظري خلف زجاج النافذة وإذا كلب يعوي بألم وأحد الشبان يصب على حروقه سطلا كبيرا من الماء.

نزل بعض المسافرين ليتفرجوا وليستفسروا أكثر، في حين ظللت بمكاني لم أغادر المقعد والقط غاتا ملتصق بي وهو يرتعد.

حين نزل المسافرون جميعا، قال لي القط غاتا: - انظري يا مريما إلى السماء، نظرتُ، وعلى الفور بدأ مطر من ضفادع صغيرة يسقط بقوة من السماء، نعم مطر من ضفادع حية، وأسرع المسافرون عائدين إلى مقاعدهم في الحافلة، كنت أتابع الضفادع الصغيرة في سقوطها وهي تضرب برؤوسها وأرجلها على النافذة كحبات البردى فتحدث صوتا قويا إذ ترتطم أجسامها بالزجاج، ثم وبمجرد أن تهوي على الأرض تستقيم على قوائمها وتبدأ في الجري في اتجاه الغرب حيث يندلع صوت الرعد، مطر هاطل من ضفادع بذات الشكل والحجم والحركة. رفض السائق الإقلاع، لم

يرد تحريك عجلات الحافلة على أجسام هذه المخلوقات العجيبة التي كانت تجري بسرعة في ذات الاتجاه، ظل واقفا واضعا راسه بين يديه ينظر إلى السماء تارة وإلى الأرض أخرى ومحرك الحافلة يدور، انتظر حتى انسحبت جميع المخلوقات بعيدا عن الطريق المعبد.

بعد نصف ساعة تقريبا من الانتظار أقلعت بنا الحافلة بعد أن اختفت الضفادع من الطريق المعبد.

أخيرا أخرج غاتا رأسه من بين نهدي بعد أن توقف المطر واختفت أسراب الضفادع من المشهد وطلعت شمس باردة من خلف غيم غير كثيف.

ساد صمت تام في الحافلة، كان المسافرون حيرى، لم يطل الصمت إذ ارتفع صوت من جهاز مسجل الحافلة بتلاوة سورة من القرآن الكريم بصوت المقرئ عبد الباسط عبد الصمد، صديق الملك المغربي السابق الحسن الثاني والذي يقال عنه إنه كان من هواة ركوب وجمع السيارات الفخمة الجميلة.

منذ الصغر، يعجبني صوت عبد الباسط عبد الصمد، كنت دائما أتصور تلاوته في مرتبة ما بين الفن والدين.

المسافرون في حيرة مما رأوا، وقد اعتقدوا أن في ما شاهدوه من سقوط مطر من ضفادع علامة من علامات الساعة، غضب من السماء، اقترب القط من أذني وقال لي:- لقد وصلنا إلى وهران.

بدت المدينة من خلال الحواجز الأمنية الكثيرة عند مداخلها وفي شوارعها الرئيسية وكأنما تستعد ليوم القيامة والحشر الذي أعلن عنه مطر من ضفادع.

وصلنا المحطة الرئيسية، سكت محرك الحافلة وبسكوته سكتت تلاوة المقرئ عبد الباسط عبد الصمد، وكنت أتمناها ألا تتوقف، انتبهت وإذا النهار قد ولى أو كاد وقد بدأ ليل غريب ينزل مبكرا قبل أوانه على شوارع المدينة المتعبة من الملوحة والرطوبة والغموض، مدينة بدت وكأنها خائفة من مصير يدبر ضدها.

سحبت حقيبتي الصغيرة على عَجَلَتيْها إلى جنبي والقط غاتا في ذراعي وأسرعت الخطى أبحث عن سيارة أجرة تقلني إلى حيث المسجد الذي يقيم فيه مُومُو، لم أنتظر طويلا على الرصيف وإذا بسيارة تتوقف عند قدمي يسوقها شاب وسيم رياضي الجسم، تسللت إلى المقعد الخلفي وضعت الحقيبة على يميني والقط على يساري. سارت بنا السيارة قليلا، بعض مئات أمتار، وإذا المحرك يتوقف، أثار لديّ هذا العطل احساسا بالخوف وسال على عنقي عرق بارد، لكن الشاب هدأ من روعي إذ انتبه إلى قلقي قائلا بلغة هادئة: – عطب بسيط، يحدث هذا معي كل يوم، البنزين مخلوط بالماء، لا تقلقي، ورفع الغطاء وبعد ثوان دار المحرك ثانية فشعرت بالراحة.

قال الشاب دون أن يرفع عينه إليّ في المرآة الارتدادية:– سمعت على أمواج الإذاعية الوطنية الرسمية خبرا مثيرا للغاية مفاده أن مطرا من ضفادع قد هطل بقوة على ضواحي المدينة، أيصدق العقل هذا الكلام؟ لقد أكلتنا الخرافة والدجل، الحكومة تكذب والناس غارقون في الخوف.

لم أرد أن أعلق، ونظرت إلى غاتا الذي بدت في ملامحه ابتسامة خبيثة وهو يسمع تعليق الشاب السائق على خبر سقوط

مطر من ضفادع.

طلبت منه أن ينزلني غير بعيد من مسجد السيدة عائشة، قبل أن يتناول مني أجرته قال لي: - حذاري من هذا الحي، فقبل أسبوع تم تفجير مطعم صغير بشارع المعدومين، الوضع الأمني في الحي غير مريح، لقد تفشت الجريمة السياسية والأخلاقية والاجتماعية.

فكرت في البداية أن أدق باب شقة شهيرا أم خوسي، لكني شعرت بإحساس رفض غريب تجاهها، لقد كانت تخونني طوال إقامتي عندها لأنها ظلت تختفي في اسم غير اسمها الحقيقي دون أن تفصح لي عن ذلك، ورغم تعلقي الشديد بها إلا أن اكتشافي بأن اسمها الحقيقي هو سعدية بنت عمران وليس شهيرا، صدفة قرأت ذلك على فاتورة الكهرباء والغاز، أحزنني وأغضبني ونَفَّرني، أنا لا أحب الأقنعة.

كان غاتا حائرا بين سعادة وتردد وخوف وقد استعادت ذاكرته هذه الأمكنة التي يعرفها جيدا.

الشوارع تكاد تكون خالية إلا من بعض المارة المذعورين ومني وأنا في عباءتي الإسلامية الباكستانية أو المصرية أمشي في اتجاه المسجد، حين وصلت كانت قلة من المصلين تغادر بيت الله بسرعة وحذر بعد أن أدوا صلاة المغرب، كانوا حزينين، يجرون خيبة خلفهم ويسحبون كرة كبيرة من الخوف بداخلهم، كنت أبحث من بينهم عن وجه مُومُو، لا أحد يشبه مُومُو، ومُومُو لا يشبه أحدا، وقفت قبالة الباب الرئيسي للمسجد الصغير وأخذت أتتبع المارة التي يبدو عليها انكسار وكآبة، لا أحد يرفع عينيه إليّ.

لم يرني أحد منهم. كأنني غير موجودة. فكرت أن أسأل أحدا عن الشيخ محند مُومُو لكني ترددت، خفت من شيء ما.

على كرسي خشبي متعب، جلستُ في الحديقة الصغيرة المهجورة التي تقابل المسجد الصغير من جهة وتقابل شقة شهيرا من الجهة الأخرى، أذكر أن أم خوسي خاطبتني ذات يوم وهي ترشف قهوة العصر من فنجانها المفضل المرصع برسومات خرافية، متأسفة على الحال الذي آلت إليه هذه الحديقة من الإهمال قائلة: – يا بنيتي يا فاطي، كان بهذه الحديقة تمثال مصنوع من البرونز للكاتب العالمي سرفانتيس صاحب دون كيخوتي دي لا مانتشا وأسفله حفرت بعض أبيات كتبها عن الحرية وحب البحر.

أذكر أن شهيرا كانت تحفظ تلك الأبيات عن ظهر قلب ومرات كثيرة استظهرتها عليّ.

سقط الليل. ليل وهران له سواده الخاص.

فجأة انتبهت فإذا بي أشعر وكأنني تحولت نسخة من أخت الرجل الثعبان الذي يظهر ويختفي وها أنذا مثلها أحدث القط غاتا كما كانت تفعل شُمَيْسَة وحولي السكارى كما كانوا من حولها بكل سلوكهم الحضاري الرقيق ولكن الاختلاف الوحيد بيني وبين أخته هو أن لا رجل يحرسني فيسرقه النوم ليتمدد على الكرتون، مع ذلك أنتظر رفع آذان الفجر علَّ مُومُو ينزل من السماء.

قدامي جلس القط غاتا لا تفارق عيناه نهديّ وضوء عينيَّ وعلى بعد أمتار كان جمع من السكارى يتجاذبون أطراف الحديث بصوت عال وبحماس يتكلمون في شؤون السياسة وفي نقد رئيس

الجمهورية وفي تعذر الحصول على تأشيرة الخروج من البلد وفي فلسطين وعن القرآن والدين وعن خيباتهم في عشق النساء.

أنتبه الآن إلى أن بي جوعا إذ أني لم أتناول شيئا طوال اليوم ومثلي غاتا الذي لا يرفع نظره من على صدري، أخرجت سندويتشا من الحقيبة الصغيرة كانت قد حضرته لي الزهرة الروخا بعد أن أنهت عليّ سرد تفاصيل حكاية ابنها رشيق الخنثى، أطعمتُ غاتا أولا وقد بدا عليه جوع قاتل، أكل بنهم مما أثار شهيتي، وقضمت بعضا من أطراف الخبز المحشو باللحم والبيض والخيار والطماطم، كان الأكل لذيذا وحديث السكارى أيضا.

من بين أصوات السكارى ميزت صوتا كان يحكي بحرقة عن خيانة النساء العشيقات وعن وفاء الموسيقى وعن حبه لآلة العود وصوت محمد عبد الوهاب، لم يكن الخلان يستمعون إليه وكنت أسمع وكان غاتا يسمع أيضا.

في حديث عاشق العود بدأ ضوء الفجر يرسل خيوطه الأولى من جهة الشرق، والسكارى اختفوا، غابوا، أخلوا المكان واحدا واحدا، انسحبوا دون ضجيج وكأنما أرادوا الاختفاء قبل أن ينزل عليهم الضوء القادم مع الفجر. اختفى الجميع إلا واحدا تمدد فوق كرتون وبدأ ينظر إلينا: غاتا وأنا.

بسقوط خيوط الفجر الأولى على الساحة المهجورة التي اقتلع منها تمثال سرفنتيس، شعرت براحة وبطاقة تسري في جسدي وبالدم يتحرك بشكل سريع في شراييني، الليل رطب أكثر في ساعات فجره، والهواء دافئ وبعض سيارات الأمن تمر دون أن تتوقف وحوارات بصوت عال على جهاز الطالكي والكي.

كنت أنتظر ساعة آذان الفجر وأنا أشعر بكثير من الاتزان، أقول في نفسي: سيهبط الصوت الرخيم الذي سينقذني من نفسي، كنت متأكدة أن مومو ينتظرني عند آذان كل فجر، عند رفع اسم الجلالة والصلاة على النبي يرسل لي رسالة حب ملفوفة في اسم الجلالة واسم نبيه الكريم، وأنه سينزل من المنارة ليأخذني وسأقبل أصابعه الأنثوية التي كان يتحرج من النظر إليها وسنضحك كثيرا على غيرته من الممثل السينمائي الإيطالي الذي شاهدناه في قاعة الكوليزي، وسأقص عليه حكاية الرجل الثعبان الذي سرق مخي مع أخته التوأم شُمَيْسَة وسأسامحه لأن الهزيمة لا تعني موت الحب.

سأقص عليه تفاصيل ما قامت به خالتي يامنة مع الفقيه احمد أوحمدان منافسها عل كتاب الله والسيرة النبوية الشريفة، خالة عظيمة تألقت في العشق حتى أدركت مدرج النسيان، نسيان ماضيها والدخول في ذاكرة جديدة، سأقول له علينا أن نغير لغتنا كما غيرت يامنة لغتها، كنت مستعدة أن أتعلم أية لغة قادرة أن تنقذني من ذاكرتي وتخلصني من هوس الرجل الثعبان الذي خانني ولو في الحلم.

كنت متأكدة أنه هو الآخر سيكون سعيدا أن ينسى لغته التي بها يؤم الناس كل يوم خمس مرات، فقط من أجل أن يتخلص من صورة الرجل الذي يظهر ويختفي وأيضا لكي يتحرر من صورة الرجل الأعمى الذي أراد الاعتداء عليه جنسيا ومن صورة والده الذي سجنه في جسم فتاة منذ الصغر.

فجأة ارتفع الآذان، آذان الفجر، والمئذنة التي منها يرتفع

الصوت باسم الجلالة وباسم رسوله هي مئذنة مسجد السيدة عائشة، لكن الصوت لم يكن صوت مُومُو، دارت بي الأرض، وبدأت السماء تهطل مطرا من ضفادع كما تلك التي سقطت قبل ساعات ونحن في الطريق، لكن الضفادع هذه المرة كانت أكبر، بحجم الذئاب أو الثعالب، بحثت عن مكان للاختفاء منها لكنها كانت تحاصرني، فَلتَ القط غاتا من ذراعي وأسرع في اتجاه الطريق وإذا بسيارة عنيفة تدهسه كما في الحكاية التي سردها الرجل عن قط أخته شُمَيْسَة، سرت أنا في الشارع الآخر وحيدة كما سارت شُمَيْسَة، وقفت قدام خراب المطعم الذي تم تفجيره، فإذا هو مطعم أرتور رامبو، مررت قدام المسجد كان بعض المصلين يركضون إلى منازلهم هاربين من مطر الضفادع أو مني ووقفت أسفل شقة أم خوسي كانت مطفأة أو ميتة، الشقق تموت كما يموت أهلها.

وفي اليوم التالي، ليلا، وحيدة عدت إلى الساحة المهجورة، لم أنتظر طويلا حتى ظهر القط غاتا سعدت بعودته إليّ، فرحت بأن السيارة لم تدهسه أو أنه لم يمت، قبلته على رأسه وقلت له:- احك لي حكاية فالليل طويل، قال، دون أن يرفع رأسه إليّ:- « للصينيين شجرة مقدّسة، تدعى البامبو، هذه الشجرة متجذرة في تراثهم العريق، ومن شغف الصينيين بها فهم يحرصون على غرسها ورعايتها منذ قرون، جيلا بعد جيل. ويتم غرس شجرة البامبو بطمرها كلية في الأرض لمدة خمس سنوات كاملة، لا يبدو منها ميلمتر واحد. ينتظر الصينيّ كلّ هذه المدة انبعاث الشجرة من أعماق التربة، بعد أن يعهدها بالسقي والرعاية. تظلّ الشجرة خمسة

أعوام تحت التـراب، لكـن عندما تبرّز إلى السـطح، مـاذا يحدث؟ تنمو بسرعة وتبلغ أضعاف طول الأشجار الأخرى في ظرف أسابيع معدودات.»

لم أكن أتتبع الحكاية السـخيفة التي يرويهـا القط ولكن الذي حيرني هو صوت غاتا، لقد تبدلـت حباله الصوتية، لم يكن ذاك هو صوتـه، وحين دققت النظـر إليه وجـدت قطا آخر يشـبه غاتا الآخر ذاك الذي خان فتاته مع قطة ضائعة والذي كان يحاور أخت الرجل الثعبان الذي يظهر ويختفي في تلك السـاحة التي تشبه هذه الساحة التي نحـن فيهـا الآن تمامـا بتمام، مـع ذلك قبلتـه وقلت لـه: - لا تتركني لمطر الضفادع، يا غاتا، أنا قطتك الضائعة.

في الركـن الآخر مـن الحديقـة المهجـورة صعد صـوت أنين عزف العود بأنامل رقيقة كأنها أنامل أنثـى وصفق الخلان للعازف، وإذ غنـى بدا صوته شـبيها بصوت المـؤذن الذي انتظرتـه ولم ينزل من علياء المئذنة فجر البارحة.

الجزائر العاصمة، أبريل 2012

openkandil.com

obeikandl.com